الفصل الرابع

الحضارة المصرية القديمة

الفصل الرابع

الحضارة المصرية القديمة

مزاعم حول الحضارة المصرية القديمة

كثيرة تلك الأوهام والمغالطات التي أحاطت بالحضارة المصرية القديمة فهي من حيث نشأتها مُتَأَخِّرة مَسْبُوقة (١) ، ومن حيث الاعتقاد وثنية مُعَدِّدة (٢) ومن حيث الأخلاق متجبرة طاغية .

كل هذه المزاعم عارية من الصحة والذي أوقع الناس فيها :

أولاً : الجهل باللغة المصرية القديمة التي كتب بها المصريون القدماء تاريخهم وترجمتها ترجمة غير صحيحة .

ثانياً : عدم استخدام التقنيات العلمية الحديثة في دراسة الآثار المصرية القديمة .

فقد اكتفي علماء المصريات والمؤرخون فقط بمحاولة فك طلاسم اللغة الهيروغليفية ولم يستخدموا أيٍ من التقنيات الحديثة في معرفة تاريخ هذه الآثار .

---

(١) فهم يؤرخون لتاريخ مصر بعام ٣٢٠٠ ق. م ، ويجعلون الحضارة المصرية القديمة تالية للحضارة السومارية والصينية والإغريقية القديمة .

(٢) تعبد آلهة متعددة .

ثالثاً : حقد كثير من الغربيين على المصريين – أصحاب أقدم حضارة عرفها الإنسان – مما حدا بهم إلى سلب المصريين والعرب عموما كل مَحْمَدَة ورميهم بكل مَثْلَبَة وما لم يستطيعوا جحد عظمته نسبوه لأنفسهم كادعاء اليهود بأنهم هم الذين بنوا الأهرام ، أو نسبوه لكائنات جاءت من كواكب أخرى !!

رابعاً : الاعتماد على ما كتبه المؤرخون القدماء – الجاهلون باللغة المصرية القديمة – الذين اعتمدوا على الأساطير ، وما شاع على ألسنة العامة ولم يتلقُّوا العلم من العلماء الحقيقيين . مثل هيرودوت المؤرخ الإغريقي الشهير الذي قضى بمصر سبع سنوات يجمع ما شاع على ألسنة عامة المصريين من خرافات وأساطير .

خامساً : وهذا السبب يرجع للفراعنة أنفسهم الذين جعلوا " تاريخ مصر الحضاري والزمني سراً من الأسرار المقدسة التي يحتفظ بها الكهنة في أحرازهم وخزائن معابدهم وضمن مقدساتهم حتى تقاوم الزمن في مواجهة العناصر الهدامة من ثورات وانقلابات كانت تعمل كل موجة من موجاتها التي تجتاح البلاد على محو تراث الحضارة ونهب وثائقها وتشويه معالم تاريخها " (١) فقد قصروا أسرار علومهم و تاريخهم على الكهان الكبار ، و أشاعوا أن ما وصلوا إليه من تقدم علمي مذهل إنما كان عن طريق السحر ليس إلا كما فعلوا مع هيرودوت . (٢)

يقول سيرج سونيرون : " إن الكهنة لم يكونوا كرماء فيما فعلوا – مع السائحين الأجانب – إذ كيف يعرضون ببساطة على الأجنبي السائح فروعاً مختلفة لعلم ارتبطت قواعده ارتباطاً وثيقاً بالأفكار الدينية لمصر ؟

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ٨ . مرجع سابق .

(٢) كتب هيرودوت ٩ كتب خصص الكتاب الثاني منها وجزءاً من الكتاب الثالث عن مصر ورغم غزارة مادته العلمية ودقة تفاصيله في سرد الأحداث والوقائع إلا أن الصواب قد جانبه في الكثير من التحقيقات الخاصة بتتابع الملوك والأحداث ويرجع بعض المؤرخين ذلك على جهله باللغة المصرية القديمة ، وأنه اعتمد على جمع معلوماته عن طريق الترجمة وصغار الكهان والأساطير الشعبية المتداولة . نفسه ص ٩

كيف يستطيعون أن يقدموا في إطار واضح مجموعة أفكار ومعتقدات راسخة لم توصلوا هم أنفسهم إليها إلا بعد تأمل دقيق ، وبعد تجميع وتراكم من تقاليد الكهنوت والمخطوطات والأساليب الفنية الروحية جيلاً بعد جيل ؟ ولقد كانت معرفة لغة مقدسة ، وإتقان الكتابة فضلاً عن تعمق دراسة النصوص والإدراك المتصل لقوة الأصوات والكلمات التي لا حد لها من الشروط الأساسية المؤهلة لدرجات العلم لدى الكهان المصريين . " (١)

سادسا : تعميم أصحاب الرسالات السماوية – قديماً وحديثاً – صورة فرعون موسى على كل الفراعنة ، فجعلوا كل فراعنة مصر فرعون موسى والحقيقة غير ذلك .

التاريخ الحقيقي للحضارة المصرية القديمة

إن جميع المؤرخين القدماء الذين أرَّخوا لتاريخ مصر كانوا من غير المصريين ، ومن الجاهلين باللغة المصرية القديمة ، ولم يكونوا من كبار الكهان حتى يتسنى لهم الإطلاع على الوثائق الحقيقية ومن هنا جاءت كتاباتهم غير دقيقة بل مُضلِّلة .

ولكن القدر لم يحرم هذه الحضارة العظيمة من معرفة تاريخها الزمني والحضاري وساعد على ذلك عدة عوامل أهمها :

١- ما دوَّنه الكاهن المصري الكبير مانيتون (٣٢٥-٢٦٨ ق. م) " ويعتبر مانيتون في نظر علماء التاريخ المصري القديم المرجع الأول بعد الآثار نفسها " (٢)

٢- اكتشاف حجر رشيد وفك رموز اللغة المصرية القديمة وكتابتها مما كان له الأثر العظيم في إعادة كتابة تاريخ مصر الحضاري والزمني خاصة عندما كشفت أرض وادي النيل عن الكثير مما في باطنها من أسرار وما فكتَّه من الرموز

(١) سيرج سونيرون " كهَّان مصر القديمة " ترجمة زينب الكردي ، مراجعة د. أحمد بدوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٤٧ .

(٢) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ١٠ مرجع سابق

الهيروغليفية من الغاز احتفظت بها جدران المعابد وحوائط المقابر و الألواح الحجرية واللوحات الفخارية ولفائف البرديات وأصبح التاريخ الزمني للحضارة المصرية موضع اهتمام كثير من معاهد الإجيبيتولوجيا وعلمائها وبعثاتها من مختلف أنحاء العالم .

كما اهتم علماء مصر لأول مرة بعد مانيتون المصري بكتابة تاريخ مصر والاهتمام بتصحيح التاريخ الزمني للحضارة ومراحل تطورها . (١)

٣- دخول علم الآثار عصر التكنولوجيا وفي مقدمة الوسائل العلمية التي وضعتها التكنولوجيا في خدمة علماء الآثار كربون القياس الزمني المشع ويعد من النتائج المباشرة لأبحاث الطبيعة الذرية . (٢)

ومن العجيب بل من المدهش عند وضع الآثار المصرية تحت منظار الكربون المشع لمعرفة التاريخ الزمني للحضارة المصرية القديمة – كانت المفاجأة أن النتائج تؤكد صحة ما دونَّه مانيتون من تواريخ " ابتداء مما أطلق عليه بدء الخليقة وحكم الكهنة المبجَّلين عام (١٦٥٠٠) ق . م إلى نهاية حكم الفراعنة وحدد فيه بداية تاريخ الأسرات عام (٥٦١٩) ق . م بدلا من عام (٣٢٠٠) ق . م الذي حدده المؤرخون الأجانب .

إن تصحيح ذلك الخطأ الزمني في تاريخ مصر سيزيد من قدم الحضارة الفرعونية عما جرى العرف عليه وحدده المؤخرون والأثريون القدامى وتأثر بهم كتاب العصر الحديث كما سيؤكد عراقة الحضارة المصرية وكونها " مهد الحضارات جميعها " وسيقطع الحيرة والبلبلة التي حاول بعض الكتاب في العصر الحديث إثارتها في محاولة يقصد بها عزو بعض مقومات الحضارة المصرية إلى بعض الحضارات الأخرى كالحضارة السومارية والإغريقية القديمة والكريتية والفينيقية والصينية لتقارب

(١) نفسه ص ٢٢ .
(٢) نفسه ص ٢٤ .

نشأة كل منها مع الحضارة الفرعونية نفسها واشتراكها في بعض عناصر الحضارة كعلوم الفلك والتنجيم والعقائد والفنون . (١)

لقد أعلن علماء مرصد برلين عند اكتشافهم أن محور القطب المغناطيسي في حركة ذبذبية مستمرة عن طريق عدة درجات ثابتة في فترات زمنية متباعدة وبدراسة درجة الانحراف وبعده عن موقعه عند إقامة الهرم الأكبر أعلنوا أن تاريخ بناء الهرم الأكبر يرجع إلى ما يقرب من ستة آلاف عام . وهو ما يتفق مع تاريخ بناء المرصد (الهرم) الذي أقامه إيمحوتب عام ٥٠٠٠ ق.م . " (٢)

ويؤكد برستد (رائد مؤرخي الحضارة المصرية القديمة) أسبقية مصر لجميع الحضارات الإنسانية .

يقول د. سليم حسن في مقدمته لكتاب فجر التاريخ لبرستد : " ولعمري لقد قضى " برستد " بكتابه " فجر التاريخ " على الخرافات والترهات التي كانت شائعة بين السواد الأعظم من علماء التاريخ القديم والحديث قضاء مبرماً ففريق منهم ظنَّ أن الصين والهند ثم بلاد اليونان كانت مهد الحضارة العالمية وعنها أخذ العالم الحديث ، والواقع أن مصر هي التي أخذ عنها العالم حضارته عن طريق فلسطين التي ليس لها فضل في ذلك سوى إنها كانت نقطة الاتصال بين الحضارة الأوربية والحضارة المصرية "(٣)

٤- جهود العلماء المصريين في مجال الآثار :

في العصر الحديث قام مجموعة من علماء الآثار والمهتمين بها بدور عظيم في اكتشاف ودراسة الآثار المصرية على أصول علمية وكان لهم الفضل العظيم في

---

(١) نفسه ص ٣١

(2) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ١٠

(3) جمس هنري برستد " فجر التاريخ " ترجمة د. سليم حسن مكتبة مصر ص ٤

إعـادة التـاريخ الزمنـي والحـضاري الـصحيح للحـضارة المـصرية القديمـة وهـو (٥٦١٩ ق. م) وكشف زيف علماء الغرب اللذين زعموا أنه (٣٢٠٠ ق. م) أي بفارق (٢٤١٩) عن التاريخ الحقيقي ؛ ليثبتوا أن الحضارة المصرية قد استمدَّت علومها ومعارفها من الحضارات السابقة عليها كالحضارة الإغريقية القديمة وبالتالي نحن نكون تابعين لهم ولحضارتهم قديماً وحديثاً لكن الله تعالى قيَّد رجالاً مصريين مخلصين درسوا واكتشفوا وترجموا الكتابات المصرية القديمة وصححوا هذه المغالطات ليعيدوا لحضارة مصر حقها المسلوب ومن هؤلاء الرجال أحمد كمال باشا ، أوَّل مؤرِّخ عربي يكتب في تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابة علمية سليمة، وله الفضل في إقناع " أحمد حشمت باشا "، وزير المعارف بإنشاء فرقة لدراسة علم الآثار المصرية بمدرسة المعلمين الخديوية ، فأنشئت أول فرقة، التحق بها عدد من الطلاب صاروا بعد ذلك من كبار علماء التاريخ والآثار، نذكر منهم: أحمد عبد الوهاب باشا، وسليم حسن، ومحمود حمزة، ومحمد شفيق غربال .

هذا عن الرد على أسطورة وجود حضارات أخرى تسبق الحضارة المصرية القديمة في النشأة ، أما عن الأسطورة الثانية والتي تفوق الأسطورة الأولى في الشيوع والانتشار فهي أسطورة ، تعدد الآلهة لدى المصريين القدماء فهذا ما سنبينه الآن .

المصريون القدماء والتوحيد

جمهور علماء المصريات والمؤرخين يجمعون على أن أهم ما تميزت به الديانة المصرية القديمة هو تعدد الآلهة .

ودونك ما قاله ستة من جهابذة علماء المصريات في " معجم الحضارة المصرية القديمة " : " لاشك أن أبرز ظاهرة في خصائص الديانة المصرية القديمة هي كثرة الآلهة : عرف المصريون مئات من الآلهة والربات جمعوها محليّاً في " تاسوعات " وأشاروا إلى " ملك الآلهة " وإلى " سيدة جميع الآلهة " . ولو ذرعنا (ذرع الطرق

قطعه بسرعة كأنه يقيسه) في كل مركز من مراكز العبادة لوجدنا كائنات إلهية تتخذ صور الأبقار والتماسيح واللبؤات والعجول وأبي قردان والثيران والطيور الجارحة الصقور ، وكثيراً من المخلوقات الأخرى ، ويطلق عليها عادة أسماء شتى في مختلف المدن . " (١)

وهؤلاء الذين يقرُّون بتعدد الآلهة المعبودة لدى المصريين القدماء يعترفون بأنه بمعرفة المصريين القدماء بالتوحيد الخالص فيقولون : " رغم أن هذه الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل والاسم وفي طريقة السلوك فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافات فكرة " الألوهية " المجردة التي لا تتكر ممثَّلة في شعار على هيئة لواء معلق في طرفه ساق خشبية تغرس عند مداخل المعابد البدائية .

وكلمة " نثر " أو " الألوهية " هي الاسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانيَّة . ومن الطبيعي أن تستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وسرعان ما أدى هذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوَّة إلهية مستقلَّة اشترك فيها كل إله .

كان الاعتقاد في " قوة إلهية " غير شخصية ولا نهائية موجودة في كل إله على حدة (ولكنها عامة ومنتشرة في حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصراً أساسيا في الفكر الديني المصري .

لهذا يمكن أن نقول إن التوحيد المصري موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضح في العبادات المادية .

كثيراً ما يُذْكر الإله في أدب الحكمة دون أي صفات : " ليست إرادة الإنسان هي التي تحقق بل تدبير الإله (بتاح حوتب) الدولة القديمة .

---

(١) جورج بوزر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدوارز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥١ ، ٥٢ .

" يَعْرف الإله من يعمل من أجله " (مير يكارع) الأسرة الحادية عشرة .

" كل من يفعل هكذا سيمجد الإله اسمه " (الحكيم آني) الأسرة الثامنة عشرة .

" الإنسان طين وقش وصانعه هو الإله " (أمينيموبي) نهاية الدولة الحديثة .

" سعيد من يسير في طريق الرب " (بيتوسيريس) القرن الرابع قبل الميلاد .

توجد أساليب التعبير هذه القاصرة على أدب الحكمة في الكتابات الخاصة .

" أدخلت السرور على قلب الإله لأني فعلت ما يحب ، إذ تذكرت أنه يجب عليَّ أن أذهب إلى الإله يوم مماتي " الدولة الوسطى .

إذن لا سبيل لإنكار أن مصر قد عرفت في مختلف عصورها عقائد تدعو لعبادة آلهة متعددة نشأت عن الديانات المحليَّة المختلفة التي احتفظت في حالة التوحيد بالاختلافات الأصلية التي كانت في عبادات ما قبل التاريخ مع وجود اعتقاد عام لا يتناقض إطلاقاً مع عمومية ووحدة كائن إلهي لا اسم له ولا شكل ولكنه يضم كل شيء . ([1])

كيف يستقيم أن يعبد المصريون القدماء آلهة متعددة في نفس الوقت الذي يعترفون فيه بوجود إله واحد أحد لا اسم له ولا شكل ؟!!

هذا هو اللغز الذي دوَّخ العلماء والمؤرِّخين .

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد – الذي نؤمن به – وبكل التشريعات الإلهية التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصرية وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكد في دراسته لمفهوم الألوهية . في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة "

([1]) نفسه ص ٥٣ ، ٥٤.

وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصرية القديمة لأن " برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد " .. عرفوا أن الله واحد لا شريك له " بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء . " (١)

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمة المصرية كانت أمة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفات " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصرية توحيد خالص"

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظرية التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي :

" الإله واحد لا ثانيَ له "

(١) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

" الإله باطن خفي" (الذي لا تدركه الأبصار)

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق (ما تحت الثرى) والمياه والجبال .. إلخ "

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الأثار : " ماريت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم جاء فيه " ومن الصفات المنسوبة إلى الله " God" في النصوص المصريَّة من كل العصور انتهي بروجش ، ودي روجيه ، وعلماء المصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقدم العصور عرفوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول .. ولا يمكن استكناه ماهيَّته" .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثل توحيد قدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهار أن فكرة التوحيد التي وُجدت في مصر منذ العصور المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " ()

والسؤال من أين جاء المصريون القدماء بهذا التوحيد الخالص ؟

هل ظهر التوحيد الخالص نتيجة للمقومات الطبيعية والبشرية التي تحدث عنها علماء الحضارة ؟!

(1) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .

الحقيقة أن المصريين القدماء عرفوا التوحيد الخالص منذ فجر التاريخ على يد نبي الله إدريس عليه السلام أو هرمس كما يسميه اليونان– كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق – وصحفه المقدسة المنزَّلة من السماء .

يقول ديورانت في " قصة الحضارة : " كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تُعْزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي ،وكانت قوانين مصر تعزى إلى تحوت "

وتحوت هو نفسه هرمس عند اليونان .

يقول د. سليم حسن : " أطلق اليونان على تحوت اسم هرمس " (1)

ويقول ول ديورانت " كان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس المثلث العظمة."(2)

فتحوت هو هرمس ، وهرمس هو نبي الله إدريس .

يقول ابن تغر بردي : " إن هرمس الموصوف بالحكمة والذي تسميه العبرانيون خنوخ هو إدريس عليه السلام " (3)

يقول النويري : "هرمس: نبي، وحكيم، وملك قيل: هو إدريس عليه السلام." (4)

ابن خلكان " ومن الناس من زعم أن هرمس الأول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة وهي الذي يسميه العبرانيون خنوخ وهو إدريس عليه السلام " (5)

وتشير برديات هرمس إلى العلاقة بين ظهور عقيدة التوحيد وظهور جذور المعرفة في الحضارة المصرية القديمة والتي ارتبطت جميع عناصرها بالعقيدة ، تقول برديات

---

(1) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " ج1 ص ١٨٦ مرجع سابق .
(2) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج1ص ٣٢٦ .
(3) ابن تغر بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ص ٦٦ .
(4) النويري " نهاية الأرب في فنون الأدب " ص ٦٣٨ .
(5) ابن خلكان "وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان " ص ١٢٣٨

هرمس " عندما آمن المخلوق برب السماء أنعم عليه بنعمة المعرفة التي حملها تحوت رسول الإله الذي ينقل رسالته إلى البشر " (1)

ويقول ول ديورانت " كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية ،وهم يقولون في أساطيرهم أن العلوم قد اخترعها من ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض " (2)

وفي دائرة المعارف للبستاني : " إن إدريس قد ملأ ٣٠٠ كتاباً بالإلهامات التي أُلهم بها " .

ويذكر القرماني أيضاً: " وقد صنَّف إدريس الكتب الكثيرة مما جاء به جبريل ومما فيه إظهار أسرار الربوبية " .

ولقد جاء في حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام ذكر الصحف الثلاثين التي أوحى الله تعالى بها إلى إدريس نبي المصريين .

قال أبو ذر الغفاري : { .... قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك ؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب". قلت: فمن كان أولهم ؟ قال: "آدم" قلت: أنبي مرسل ؟ قال: "نعم، خلقه الله" بيده، ونفخ فيه من روحه، سواه قبيلاً " .

ثم قال : "يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث **وخنوخ وهو إدريس**، وهو أول من خط بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر وأول

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٠
(2) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٥ .

أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد" قال: قلت: يارسول الله، كم كتاب أنزله الله ؟ قال: "مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، **وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة**، ... } (١)

وذكر القرطبي في تفسيره : " إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر. الزمخشري: وقيل سمي إدريس إدريس لكثرة درسه كتاب الله تعالى . " (٢)

هذا ما قاله المفسرون في حق إدريس ، فماذا قال علماء المصريات عن تحوت؟

الحقيقة أن الكلام يكاد يتطابق مما يؤكد أنهما شخص واحد .

يقول علماء المصريات : " تحوت إله العلم والحكمة والأدب ، وكاتب الآلهة ومخترع اللغة الهيروغليفية وواضع القوانين ومخترع علم الحساب والفلك " (٣)

وإذا كانت دعوة التوحيد قد بدأت في مصر واعتنقها المصريون منذ عهد إدريس عليه السلام أي منذ ما قبل ٨.٠٠٠ عام . فإنها قد ظلت عقيدة راسخة نجد أصداءها تتردد بقوة على مر العصور والعقود .

وقبل أن يسارع أحد بتكذيب توحيد المصريين القدماء باسم الإسلام نضع بين أيديكم هذه الحقائق :

إن الدين الإسلامي لا يكذب شيئا مما ذكر عن توحيد المصريين لله تعالى الواحد الأحد بل على العكس يؤكده وإليك الدليل على هذا :

---

(١) ذكر الحديث ابن كثير في تفسير قوله تعالى : { وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ }(النساء : ١٦٤).
(٢) تفسير القرطبي لقوله تعالى : "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا" (مريم : ٥٦)
(٣) عبد القادر حمزة " على هامش التاريخ المصري القديم " مطابع الشعب ٤٧٧ .

إن القرآن الكريم قصَّ علينا قصص الأنبياء الذين عاشوا في مصر ، فبها وُلد إدريس ، وموسى ، وهارون ، وعاش فيها الخليل إبراهيم ،وإسماعيل ،ويعقوب ويوسف وعيسى – عليهم السلام جميعاً ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم وممن لم يأت ذكرهم ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾

(النساء : ١٦٤)

وبنص الآية الكريمة فإن هناك رسلاً عديدين لم يأت ذكرهم في القرآن الكريم . ولا شك أن منهم الكثير ممن أرسلهم الله سبحانه إلى المصريين القدماء – بالإضافة إلى من جاء ذكرهم في القرآن الكريم – على مدى آلاف السنين في تاريخنا المجيد الطويل المديد .

إذا لم يكن المصريون قد عرفوا التوحيد ، فماذا فعل هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام – في مصر ، أ لم يبلغوا رسالة الله للمصريين ؟ أ لم يؤدُّوا الأمانة إليهم ؟

بلى بلغوا الرسالة للمصريين ، وأدوا إليهم الأمانة ودعوا إلى الله الواحد حتى في أحلك الظروف .

ألم يدعو يوسف عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وهو في سجن ملك مصر .

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف : ٣٩)

ألم يبلغ موسى وهارون فرعون وملئه رسالة الله تعالى بل وحاجَّاه فيها .

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {٤٣} فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى {٤٤} قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى {٤٥} قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى {٤٦} فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى {٤٧} إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ

وَتَوَلَّى {٤٨} قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى {٤٩} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {٥٠} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى {٥١} قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾ (طه : ٤٣- ٥٢)

لقد أرسل الله تعالى في كل أمَّة من الأمم رسولاً يهديهم إلى الحق ،وأرسل مع كل رسول كتاباً مقدساً فيه شريعة الله تعالى .

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(فاطر : ٢٤)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ(الكتب المقدسة) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل ٤٢، ٤٣)

فلم العجب من معرفة المصريين للتوحيد الخالص ، وما العجب من نزول كتب مقدسة على رسلهم وقد دلت الآية السابقة على ذلك ؟!

وربما قال أحدهم إن القرآن الكريم حدثنا عن تكذيب الفراعنة لرسل الله .

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الأنفال : ٥٢)

نعم إن من الفراعنة من كذَّب الرسل ولا نعلم منهم إلا فرعون موسى لكن القرآن لم يحدثنا ولو لمرة واحدة أن الفراعنة – هكذا بصيغة الجمع – كلهم كذبوا الرسل .

كما أن القرآن الكريم لم يقل مرة واحدة أن المصريين كذبوا الرسل ، وكيف يكذب كل المصريين على مدي تاريخهم القديم – كل الرسل على كثرتهم واختلاف أوقات نزولهم ؟

أ لم يؤمن مصري واحد برسول ؟!

ونأتي الآن إلى فرعون موسى الذي عمَّم المسلمون والمسيحيون واليهود عقيدته وجبروته لتشمل جميع فراعنة مصر بل جميع المصريين القدماء ، فجعلوا كل مصري : حاكماً أو محكوماً ، فرعونَ موسى حاكماً طاغياً متألِّهاً !!

فرعون موسى

لقد أفاض القرآن الكريم في الحديث عن كفر فرعون موسى وطغيانه ، فهل ذكر القرآن الكريم – ولو لمرة واحدة – أن كل شعبه كان كافراً مثله ؟

اللهم لا .... إنما دائما القرآن الكريم يخصص فيقول : آل فرعون (أي أهله) أو ملئه (الأشراف ، والعلية) أو جنوده ، وأقصى تعميم للقرآن الكريم هو قوم فرعون ، وقوم الرجل أقاربه عصبية ومن يكنون بمنزلتهم تبعاً له . (١)

الأعجب من ذلك أن القرآن الكريم ذكر أن جماعة من قوم فرعون قد آمنوا بموسى عليه السلام .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (يونس : ٨٣)

قال ابن كثير في تفسير الآية " قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل قوم يسير " منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه ، وماشطة ابنة فرعون "

بالإضافة إلى سحرة فرعون الذين آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ {١١٧} فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١١٨} فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ {١١٩} وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ {١٢٠} قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ {١٢١} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف:١١٧ – ١٢٢)

(١) انظر معاجم اللغة في معنى : آل ، الملأ ، قوم الرجل .

ويخبرنا الحق جل وعلا أنه أهلك قوم فرعون الذين كذبوا أجمعين ، فهل أهلك الله تعالى شعب مصر على فرض أنهم هم قوم فرعون ؟!

بالطبع لم يقل بهذا عاقل إنما قوم فرعون هم من آمنوا به وكفروا بالله تعالى

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَه فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ {٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾(الزخرف : ٥٤ – ٥٦)

أ لم يبق شيء من الكتب المقدسة فيه ما يدل على وحدانية الله ؟!

والحقيقة التي لا يماري فيها عاقل أن مصر كغيرها من الأمم التي أرسل الله إليها رسلاً منهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن الحضارة التي دوَّنت كل حياتها أ تبخل على كتب الله المقدسة بالتدوين ؟

وما تلك الكتب المقدسة التي عُثر عليها ؟ أ هي من صنع بشر ؟!!

إن كثيراً من الوثائق المصرية القديمة ككتاب الموتى ، ونشيد الشمس لا تملك أن تقول فيه إلا كما قال النجاشي عندما سمع القرآن " هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة "

يقول رع عن نفسه : " إني أنا الذي خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال . أنا الذي خلقت الساعات ومن ثَمَّ جاءت الأيام إلى الوجود .

أنا الذي خلقت نار الحياة .(١)

ويقول عن نفسه أنه : " الإله المقدَّس الذي جاء إلى الوجود بنفسه .. الإله الأزلي الذي وُجد في البدء والذي رفع السماء وسوَّى الأرض .. الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل " (٢)

(١) نقلا عن إبكار السقاف " الدين في مصر القديمة ". العصور الجديدة ص ٤٥ .
(٢) نفسه ص ٤٦ .

ورع هو الاسم الأشهر الذي عُرف به الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وهو ما يقابل عندنا لفظ الجلالة " الله " .

و" رع " عند المصريين القدماء ليس اسم الله الأعظم ، فاسم الله الأعظم لا يعرفه أحد ، وعند قضية اسم الإله نتوقف قليلاً إذ يجب أن نلفت الانتباه إلى نقطة لها خطورتها في اللاهوت المصري القديم ، وأيضاً في لاهوت جميع الأديان السماوية .

الفرق بين أسماء الصفات واسم الله الأعظم

إن كل الأسماء الإلهية الحسنى هي في حقيقتها أسماء صفات أي أسماء لبعض صفاته سبحانه وتعالى . أما اسم الله الأعظم الذي يعبر عن كنهه تعالى وماهيته فهو اللاهوت المصري القديم – وفي كل الأديان السماوية – لا يعرفه أحد فهو مما استأثر به الله تعالى في علم الغيب عنده .

كان المصريون القدماء يدركون العلاقة بين الاسم وصورته ، فاسم الشيء تصوير لكنهه وطبيعته .

يقول سيرج سونيرون: " الكلمات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجوهر المخلوقات أو الأشياء التي تعبر عنها ؛ فإن تشابه الألفاظ لا يمكن أن يكون إذن شيئاً عرضيّاً بل لا بد أنها تعبِّر عن تقارب في الطبيعة ، واتصال دقيق يضطلع الكهنة بفهمه والقيام بتعميقه : ومن ذلك أسماء الأماكن وأسماء الآلهة والألفاظ التي تعبر عن الأشياء المقدسة . كل شيء يصبح من الممكن تفسيره عن طريق الاشتقاق والجرس الصوتي للكلمات ." (1)

ويضرب سونيرون الأمثال لتوضيح علاقة الرسم بالاسم المراد التعبير عنه نكتفي منها بمثل واحد : " فلنكتب على سبيل المثال اسم الإله بتاح مستخدمين في ذلك

(1) سيرج سونيرون " كهَّان مصر القديمة " ترجمة زينب الكردي ، مراجعة د. أحمد بدوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٣٨ .

إشارات أصلية فنرى الكاتب يعبر عن الحرف الأول من اسم الإله وهو " ب " بصورة السماء ، واسمها كما ينطق به في المصرية " بة " ، وعن حرف " ت " بصورة الأرض واسمها المصري " تا " ، وعن حرف " ح " برسم الإله " حح " رافعاً ذراعيه إلى أعلى ومعبراً في الوقت نفسه عن إحدى الوظائف التي أسندتها نظرية منف الدينية إلى الإله " بتاح " الذي فَصَلَ في خلق الكون بين السماء والأرض ، وفي وضع رسم المعبود " حح " بين السماء " بة " التي يرفعها بذراعه، والأرض " تا " التي وطئها بقدميه استطاع الكاتب أن يرسم الصورة الصوتية لاسم المعبود " بتاح " ، وأن يرسم في الوقت نفسه صورة صغيرة تترجم رؤيتها وظيفة هذا الإله بين عناصر الكون. " [1]

وهكذا يستطيع النص المرسوم على هذا النحو أن يتحدَّث إلى العقل الذي يتابع الألفاظ ويدرك معانيها إلى العيون التي تترسم الصور والأشكال ، شأنها في ذلك شان الفيلم الذي يتحدث إلى العقول بأحداثه وإلى العيون بصوره ، فيعبر عن القتال بصورة رجلين يقتتلان . [2]

فبالله عليك وحالة الكتابة المصرية على هذا النحو كيف يكتبون اسم الله الأعظم لذا لم يذكروا له اسماً ، ولم يرسموا له رسماً ، ولم ينحتوا له تمثالاً ، لأنه باطن خفي عن مخلوقاته لا تدركه الأبصار .

جاء في كتاب الموتى وهو أقدم كتاب مقدَّس عرفه المصريون القدماء في عصور ما قبل الأسرات : " لا يعرف الإنسان اسم الخالق "

وفي متون الأهرام : " إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول " [3]

([1]) نفسه ص ١٤٤ .
([2]) نفسه ص ١٤٥.
([3]) د. نديم السيار " ليسوا آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٣٢٠

إنه من المستحيل أن يصل المصريون القدماء إلى هذا التوحيد بعقولهم المجردة مهما بلغوا من الذكاء والعبقرية .

نظرية المصريين القدماء في نشأة الكون

والأعجب من ذلك أن المصريين القدماء عرفوا نشأة الكون كما جاء في الكتب السماوية ، وكما أثبتتها الأبحاث العلمية الحديثة .

فقد جاء في الوثائق المصرية القديمة أن الإله " رع " هو الذي خَلَق الخَلْق وكان عرشه على الماء .

جاء في كتاب الموتى { إني أنا " أتوم " حين كنت في نون – الماء الأزلي – وإني أنا " رع " حين بدأت أحكم مَن قد خلقت } (1)

وأتوم هو اسم من أسماء صفات الإله بمعنى المبدئ أو الخالق وليس إله آخر مع رع أو أمون ... .

يقول سليم حسن عن نشأة الكون : " هكذا بدأ العالم بالإله " أتوم " الخالق . " (2)

ويجب ألا نتعجب من كثرة صفات الإله وأسمائه فقد جاء في الحديث الصحيح "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر".(متفق عليه)

وذكر الله تعالى بعضها مجمَّعاً فقال تعالى :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ {٢٢} هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

(1) نقلا عن إبكار السقاف " الدين في مصر القديمة ". العصور الجديدة ص ٤٤ .
(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص ٢١٠ مرجع سابق .

سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ {٢٣} هُوَ اللَّـهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَـهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(الحشر : ٢٢- ٢٤)

فهل الملك والقدوس والمؤمن والمهمين والعزيز والجبار ... أسماء آلهة ؟!

لا يقل بهذا مسلم عاقل صحيح الإسلام إنما هي أسماء لمسمى واحد أحد فرد صمد لا تدركه الأبصار .

و" رع " هو القوة الخفية وراء قرص الشمس ، وهو أشهر الأسماء لله الواحد الأحد عند المصرين .

أما " نون " فهو الماء الأزلي الذي خرجت منه الأرض .

يقول سونيرون " فالنون المصرية تمثِّل صفحة الماء ذات الأمواج .. وأصبح مستفاداً من سياق النص " الماء الأولي الذي أخرج الأرض " (١)

ولقد جاء ذكْر " نون " بنفس المعنى في القرآن الكريم في افتتاح صورة القلم ، وفسَّره بعض المفسرين بأنه يعني الماء ، أو المحيط :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم : ١)

عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: وماذا أكتب ؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء وبسطت الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنها لتفخر على الأرض . (٢)

---

(1) سيرج سونيرون " كهّان مصر القديمة " مرجع سابق ص ١٤٦ .
(2) تفسير ابن كثير للآية ، والقرطبي ، والطبري وغيرهم .

كما جاء في القرآن الكريم أن عرش الله تعالى كان على الماء ثم خلق السموات والأرض : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء﴾ (هود : ٥)

قال مجاهد وغيره من المفسرين: إنه تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه فجعله أرضاً وثار منه دخان فارتفع، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مدحوة . [1]

لكن ما معنى أن الله تعالى قد دحا الأرض ؟ أي جعلها كالدحية .

يقول الدكتور زغلول النجار مفسراً معنى كلمة دحية : " هذه الكلمة هي باللغة العربية الفصحى وتعنى بيضة وأنها مذكورة في القرآن الكريم في سورة النازعات:(والأرض بعد ذلك دحاها) أي أن الأرض في شكلها تشبه البيضة منبعجة قليلا عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين . " [2]

ومما يؤكد أن المصريين القدماء كانت عقيدتهم موحى بها من السماء وليست من بنات أفكارهم – كما يدعي العلمانيون – أنهم نحتوا الإله " خنوم " في هيئة رجل ذي رأس كبش وقرون مزدوجة إنه الإله خالق الحياة والكائنات الحية ، وله صورة ظهر فيها وهو ممسك بالبيضة التي خرجت منها الحياة . [3]

وخلْق الأرض على شكل بيضة حقيقة جاء ذكرها في القرآن الكريم كما أثبتها العلم الحديث . فكيف عرف المصريون القدماء أن الأرض بيضاوية إلا إذا أخبرهم بها الخالق عن طريق رسله .

---

(1) نفسه .
(2) نقلا عن موقع د. زغلول النجار .
(3) معجم الحضارة المصرية القديمة مرجع سابق ص ١٥٣ .

ومن العجيب أن المصريين القدماء ذكروا في وثائقهم أن السموات والأرض كانتا بيضة ثم انفجرت مكونتاً السموات والأرض .

وتنسب الوثائق هذا الانفجار للإله " بتاح " .

{ الإله " بتاح " الذي فَصَلَ في خلق الكون بين السماء والأرض } [1]

كما تنسب الوثائق أن الذي قام بفتق بيضة الأرض هو الإله " شو " وهذا يدل على أنهما إله واحد له عدة أسماء ، أو أن "شو" هو الملك الهواء كما أن عزرائيل هو ملك الموت ، وأن الخطأ في ترجمة لفظ " نيثر " كما سيأتي بيان ذلك .

{ نام " جب " أي الأرض تحت قدمي " نوت " أي السماء وذلك لأن الإله " شو " إله الهواء فتقهما عن بعضهما بعد أن كانتا رتقاً ووضع نفسه بينهما ورفع السماء بلا عمد وصارت ترتكز على ذراعيه } [2]

وقد استشهد د. سليم حسن تعليقاً على الفقرة السابقة بقوله تعالى :

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ } (الأنبياء:٣٠)

ولقد جاء علم الفلك ليظهر هذه الحقيقة التي ذكرها الله في كتابه وتلاها نبيه على المسلمين قبل ألف وأربعمائة سنة :

فعلماء فلك يرجع نشأة الكون إلى ١٣.٧ مليار عام وذلك طبقاً لما أعلنته إدارة الطيران والفضاء الأمريكية (ناسا) مؤخراً حيث حدثت حادثة تعرف باسم الضربة الكبرى (Big bang) وهي حادثة بداية الكون . ويعدون أن حدوث مثل هذه الحادثة

([1]) سيرج سونيرون " كهّان مصر القديمة " مرجع سابق ص ١٤٤ .
([2]) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " مرجع سابق ج١ ص ٢٢٩

كان أمراً واقعاً، إذ كانت المادة الموجودة حالياً في الكون مركزة بكثافة عالية جداً في هيئة بيضة كونية تتركز فيها كتلة الكون . (1)

والأعجب من ذلك أن القدماء المصريين يذكرون كيفية خلق الله للأشياء .

يقول سونيرون : " إن مدارس اللاهوت – لدى المصريين القدماء – قد تبنت كلها أسلوباً فنياً متشابهاً لفكرة الخلق يقوم أساساً على " الكلمة " فما هي إلا أن تجول إرادة الخلْق في خاطر الإله الأول حتى يتكلم فتكون المخلوقات والأشياء التي عبَّر عنها صوته . (2)

وهو ما يتفق مع جاء به القرآن الكريم { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (البقرة : ١١٧)

وتذكر الوثائق أن الإله " بتاح " هو الذي خلق الإنسان وعلمه الأسماء كلها .

" بتاح إله مدينة " منف " اعتقدوا أنه خالق الإنسان من طين ، وأنه إله الفن والصناعة الأكبر " (3)

ويقول برستد : " بتاح الذي نطق بأسماء كل الأشياء " (4)

ويستشهد د. سليم حسن مترجم كتاب برستد " فجر الضمير " معلقاً على كلام برستد في الفقرة السابقة بالآية القرآنية الكريمة :

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (البقرة : ٣١)

كيف عرف المصريون القدماء نشأة الكون ، وخلق الإنسان والله تعالى يقول :

---

(1) نقلا عن موقع " موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " .
(2) سيرج سونيرون " كهّان مصر القديمة " مرجع سابق ص ١٣٩ .
(3) عبد القادر حمزة " على هامش التاريخ المصري القديم " مرجع سابق ص ٤٧٢ .
(4) جمس هنري برستد " فجر التاريخ " ترجمة د. سليم حسن مكتبة مصر ص ١٠ .

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً } (الكهف : ٥١)

وليس ثمة إجابة إلا أنهم عرفوا نشأة الكون عن طريق وحي السماء .

المصريون القدماء والكتب المقدسة

المدهش أنه وجد تشابه إلى حد التطابق بين ما جاء في البرديات المصرية وما جاء في الكتب السماوية فالمزمور رقم ١٠٤ من مزامير داود في التوراة منقول حرفيّاً من نشيد إخناتون .

يقول د. أحمد فخري إن نشيد إخناتون هو " الأصل الذي نُقِل عنه جزء من المزمور رقم ١٠٤ من مزامير داود في التوراة " (1)

ولاحظ هذه الملاحظة كثير من الدارسين للحضارة المصرية القديمة من الأجانب والمصريين ، ومنهم د. سليم حسن الذي قابل كل كلمة في المزمور بمثيلتها في نشيد إخناتون فوجد أن النصين يكادان أن يتطابقا .(٢)

ويفصل جارودي سَبْق التوحيد المصري التوحيد العبري فيقول : في نشيد الشمس لإخناتون يُعْبَد الله خلف كل صورة، باعتباره خالقًا متفردًا لعالَم الطبيعة، ولتاريخ البشر، وباعتباره إلهًا واحدًا، ليس معه إله آخر، وهذا تعبير عن التوحيد الحقيقي إن الإضافة المصرية إلى ميلاد الوحدانية واضحة، حتى قبل إخناتون" في القرن الثالث عشر. ق.م" لدرجة أن المزمور الرابع بعد المائة في الكتاب المقدَّس يُعيد بصورة دقيقة "نشيد الشمس". (٣)

---

(1) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية " ج١ ص ٤١٧ مكتبة النهضة المصرية .

(2) راجع الموازنة التي أقامها سليم حسن بين نشيد إخناتون والمزمور ١٠٤ في موسوعة مصر القديمة" ج٥ ص ٣٠٢- ٣٠٥ مرجع سابق .

(3) لمزيد من التفصيل حول أسبقية توحيد المصريون القدماء توحيد العبرانيين راجع كتابنا " الدين والسياسة والنبوءة " الفصل الثاني " أسطورة شعب الله المختار " . دار الكتاب العربي .

ليس هناك تشابهاً فقط بين نشيد إخناتون ومزامير داود بل ، إن برستد يذكر أن مقياس الأخلاق المصري القديم أسمى من الوصايا العشر الموجودة في التوراة .

يقول برستد : " قد ظهرت أمامي تجارب أشد إقلاقاً لنفسي وذلك عندما كشفت وأنا مستشرق مبتدئ أن المصريين كان لهم مقياس خُلُقي أسمى بكثير من الوصايا العشر ، وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تُكتب تلك الوصايا بألف سنة " (١)

بل لقد وجد برستد تشابهاً بين حكم " أمينموبي " وكتاب الأمثال في التوراة .

يقول برستد : " وقد كان أعظم كشف جاوز حد المألوف في هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة " أمينموبي " التي حفظت لنا في ورقة مصرية بالمتحف البريطاني قد ترجمت إلى العبرية في الأزمان الغابرة ، وأنه بذيوعها في فلسطين صارت مصدراً استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال في التوراة " (٢)

وعندما نشر العالم الألماني " أدولف أرمان " في عام ١٩٢٤ مقاله الشهير عن بردية " أمنيوبي " ذلك المقال الذي أثبت فيه أن هذه البردية هي أصل سفر الأمثال المنسوب إلى النبي سليمان دهش العالم كله لهذه الحقيقة وخذ العلماء عن الأدب المصري في أيام الفراعنة هذا الأدب الذي أثر في آداب الأمم الأخرى وبخاصة في أدب العبرانيين أو بعبارة أخرى فيما ورد في التوراة " (٣)

ولم يتوقف الأمر عند صدمة الغربيين لما رأوه من تشابه كثير من العقائد المصرية القديمة لما جاء في التوراة بل اشتدت صدمتهم عندما رأوا تشابهاً كبيراً بينها وبين الديانة المسيحية أيضاً .

تقول مرجريت مري : " الكتاب المحدثون منهم من يُصْدم بما جاء في الديانة المصرية من أوجه شبه مع المسيحية ، ومنهم من يعالج الموضوع بأكمله بخفّصة لا

(1) جمس هنري برستد " فجر التاريخ " ترجمة د. سليم حسن مكتبة مصر ص ١٠ .
(2) نفسه ص ١٢ .
(3) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " مكتبة النهضة المصرية ص ٣٧١

تخلو من السخرية والازدراء البسيط ، وكلهم ينسون أن هذه الديانة نفسها (تقصد المصرية) استمرت خلال آلاف السنين تحمل إلى معتنقيها العون في المحن ، والراحة عند الحزن ، والشجاعة عند المحن ، ومع أن المظاهر الخارجية قد تبدو غريبة ومنفِّرة في أعيننا إلا أن هذه الألهة كانت عند المصريين حقّاً وصدقاً كاعتقاد المسلمين في الله ، والمسيحيين في المسيح " (١)

إذن فتاريخ المصريين القدماء تاريخ التوحيد ابتداءً من إدريس الذي ظهر قبل ثمانية آلاف قبل الميلاد إلى الألف الأولى قبل الميلاد على لسان حكيم – وقيل أنه نبي – من النوبة أقصى صعيد مصر أو سودان مصر ألا وهو حكيم الحكماء لقمان الذي سمَّا الله تعالى سورة من سور القرآن الكريم باسمه جاء فيها .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {١٢} وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان : ١٢ ، ١٣)

جاء في تفسير القرطبي " لقمان بن عنقاء بن سرون كان نوبيّاً من أهل أيلة" (٢) وقال سعيد ابن المسيب : " كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليا ولم يكن نبيا. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوة. "(٣)

إذن لا شكَّ في أن المصريين القدماء كان لديهم كتب سماوية ، وأن الله سبحانه قد أنزلها وحياً على نبيهم إدريس في بداية الخليقة ، ووعظ بها لقمان الحكيم قبل الميلاد بألف عام .

---

(١) مرت مري " مصر ومجدها الغابر " ترجمة محرم كمال لجنة البيان العربي ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٢) تفسير القرطبي لقوله تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ " (لقمان : ١٢)
(٣) نفسه .

كما نجد في الوثائق المصرية القديمة العديد من الشواهد على أن تلك الكتب المنزّلة كانت لها في نفوسهم قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم " آني " إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزَّلة . " (1)

ويقول عالم المصريات الكبير د. سيد كريم " إن ما جاءت به الكتب المقدسة من عقيدة وشريعة وعبادة " وُجدَت مُفَصَّلة في " كتاب الموتى " الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أول دين سماوي عرفته البشرية خاصة وأن أقدم آثاره ترجع إلى ما قبل فجر الحضارة نفسها أي قبل الأسرات سنة ٤١٠٠ ق. م " (2)

إذن وبناءً على ما تقدم فإن المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهة متعددة كما هو مشهور بل كانوا أول شعوب الأرض يؤمن بالله الواحد الأحد وبشريعته وعلومه المقدسة وذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسية فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد وهذا ما يحل لنا الغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصرية القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطب والفنون والآداب والعمارة ،والأعجب من ذلك – أو ربما ما يفسر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإله " رع " رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفية الكامنة التي تهب الحياة وتسيِّر الكون . " (3)

ويلح سؤال على ذهن كل المتشككين في هذه الأدلة التي سقناها لإثبات توحيد المصريين القدماء ومعرفتهم برسالات السماء .

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ مرجع سابق .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ٥٣ مرجع سابق .
(3) نفسه ص ٦٦

إذا كان المصريون القدماء مؤمنون بهذا الشكل فكيف يصفهم جمهور علماء المصريات والمؤرخون بأنهم مشركون يعبدون آلهة متعددة ؟!

والسؤال له وجاهته فإن فكرة تعدد الآلهة عند المصريين القدماء تكاد تكون من المُسلَّمات عند الحديث عن العقيدة الدينية لدى المصريين القدماء بل إن تصحيحها سيثير جدل الناس كما صرَّح بذلك د. حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم الأسبق .

إن لإجابة هذا السؤال قصة حان الآن ذكرها .

حيرة العلماء في ترجمة لفظ " نيثر "

من البديهي أن لفظ " الإله " الذي نصف به في كتبنا الحالية تلك الشخصيات مثل : بتاح ، ورع ، وآمون .. إلخ هو لفظ يستخدم في اللغة العربية ، ونفس الشيء لفظ God في الإنجليزية الذي يعني أيضاً " الله / إله " وكذلك بالنسبة للفظ Dieu في الفرنسية ، و Gott في الألمانية ... الخ

من البديهي أيضاً أن المصريين القدماء كانت لهم لغتهم الخاصة التي تختلف عن العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية .. الخ أي أنهم لم يكونوا يستخدمون لفظ الله أو God أو Dieu أو Gott .. الخ في وصف تلك الشخصيات وإنما كانوا يستخدمون لفظاً آخر في لغتهم وهو لفظ " نيثر " فيقولون : النيثر بتاح ، النيثر رع ، النيثر آمون .. الخ وبعد انتهاء العصور الفرعونية اندثر آخر معتنقي الديانة المصرية فلم يعد هنالك من أصحاب تلك العقيدة من يمكنه أن يحدثنا عنها ويوضح لنا مدلول مصطلحاتها ، وألفاظها الدينية ، كما أضيف إلى ذلك اندثار حروف الكتابة الهيروغليفية وذلك بعد استبدال الإغريق رسميا الحروف اليونانية بالكتابة الهيروغليفية ثم تغييرها بعد ذلك إلى الحروف العربية وبذلك ضاع مفتاح الهيروغليفية تماماً ، ولم يعد هناك من يعرف أسرارها وفك طلاسمها فحتى ما كان قد كتبه أصحاب تلك

الديانة المصرية لشرح عقيدتهم لم يعد بمقدور أحد أن يقرأه . وبذلك انقطعت الصلة تماما بالحضارة المصرية بأكملها : ديانة وفلسفة وفكراً .. الخ ثم أيضاً كتابةً ولغةً وظلَّ الأمر هكذا ما يقرب من ألفي عام إلى أن شاء الله أن يكتشف الفرنسيون حجر رشيد ثم ما أعقب ذلك من فك شمبليون لرموز الكتابة الهيروغليفية وبذلك تمكَّن العلماء من قراءة النصوص المكتوبة باللغة المصرية القديمة ، وهنا وقف العلماء من الروَّاد الأوائل في حيرة أمام العديد من الألفاظ والمصطلحات وخاصة ما يتعلَّق منها بصميم العقائد وما يرتبط بمعانٍ دينية وميتافيزيقية فاجتهد كلٌّ منهم في محاولة ترجمة تلك الألفاظ قدر استطاعته وبقدر ما أمكنه تصوُّره للمعنى المقصود من وراء هذا المصطلح أو ذاك ، وبذلك كانت الترجمة في كثير من الأحوال تقريبيَّة تخمينيَّة .

وبالنسبة لهذا المصطلح الديني " نيثر " فقد توقَّف أولئك الرواد الأوائل من العلماء أمامه طويلاً ، وكثرت اجتهاداتهم في محاولة تفسيره على مدى سنوات دون أن يصلوا إلى قرار واضح قاطع .

يقول عالم المصريات البريطاني " والس بدج " : " لقد نوقشت كلمة " نيثر " بشكل موسَّع بين عديد من علماء المصريات ، ولكن لم يتطابق ما توصلوا إليه من مغزاها أبداً " .

وفي النهاية كان لابد من الوصول إلى قرار وكان لا مفر من إيجاد ترجمة ؛ لذا أخذوا برأي البعض ممن غامر بالقول باحتمال أن هذا اللفظ قد يعني " إله " ومن يرجع إلى ما كتبه " والس بدج " في عرضه لتفاصيل ما جرى سيرى كيف كانت رحلة الحيرة في ترجمة هذا المصطلح المهم والخطير بدءاً من إعلان العلماء عجزهم عن فهمه وانتهاءً بوصول بعضهم إلى ذلك الخطأ – أو الخطيئة – بترجمته بلفظ " إله " وهي الترجمة التي – للأسف – قد ثبتت وانتشرت واشتهرت برغم اعتراض الكثير من العلماء عليها آنذاك ، وقد كان ذلك كله في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي .

وهكذا انتهت الأمور إلى ترجمة هذا " اللفظ " في المراجع الإنجليزية God وفي المراجع الفرنسية Dieu وفي المراجع الألمانية Gott .. الخ ثم جئنا نحن فنقلنا من كتب أولئك الرواد من العلماء الأجانب وبطبيعة الحال ترجمنا ترجمتهم بلفظ " إله " وبذلك امتلأت كل كتب التاريخ الفرعوني في الإنجليزية بلفظ God كلقب لكل الشخصيات الفرعونية المقدسة مثل بتاح ، ورع ، وآمون وبالمثل في الفرنسية والألمانية وبالمثل أيضا في الكتب العربية .

وهكذا كتب تنقل من كتب ، وما تكرر تقرر فأصبحت هذه الترجمة الخاطئة وكأنها حقيقة واقعة وقضية مسلم بها .

ويقرأ القارئون فتصطدم مشاعرهم بما يطالعون من أسماء عشرات ومئات الآلهة !! فهذا الإله بتاح ، وذلك الإله رع ، والإله آمون ، والإله أوزوريس ، والإله تحوت ، والإله أنوبيس أنوبيس والإله حورس .. الخ

وكان من الطبيعي أن ينفر الناس من هذا التعدد في الآلهة وهذا الشِّرك الفاضح ، وكان من الطبيعي أن يَصِم الناس أولئك المصريين القدماء بوصمة الكفر والإلحاد والشرك بالله . وهم من كل ذلك براء فالمشكلة في الأصل كانت خطأ في الترجمة أدَّى إلى خطأ نحن الذين صنعناه وصدَّقناه ثم ثبت في الأذهان ثم ظلمنا به القدماء افتراءً واجتراءً .

يقول عالم المصريات ماريت :{ فوق مَجمَع الـ " نيثر . و " (جمع نيثر) المصرية إله واحد لم يولد ولا يمكن رؤيته فهو خالد مُخْتفٍ عي عُمق جوهره المنيع خالق السموات والأرض وكل كائن حيّ وهو على كل شيء قدير هكذا كان الله الذي تم ذكره عند قدماء المصريين ، ومن بين النصوص القديمة التي عثر عليها فقرة تقول : [الإله خالق الـ " نيثر.و "] هذا ما كتبه المصريون أنفسهم }

لقد جمع د. بروجش عدداً هائلاً من الفقرات من النصوص المصرية القديمة التي تتحدث عن الإله والواحد ومن هذه العبارات {الإله خالق الـ " نيثر.و " }

{ الإله خالق مصوِّر الناس ومكوِّن الـ " نيثر.و }

هذا ما قاله المصريون القدماء بالنص وبكل وضوح عن علاقة هذه الكائنات الـ " نيثر.و " بالإله الواحد . فهي مجرد خلق من مخلوقات الله تعالى ، ولا علاقة لها بالمرَّة بمعنى الألوهية أو المساواة بالإله الواحد الأحد فالإله هو خالقها وصانعها ومسخرها لما يريد وكلها – وكلنا – له عبيد .

وفي عقائد المصريين القدماء أن الـ " نيثر.و " قد خلقوا من النور ، ولهم قدرة على التشكل في أكثر من هيئة وصورة .

والغريب أن المصريين القدماء صوّروا بعض الـ " النيثر.و " على هيئة الحيوانات : الثور ، والبقر ، والتمساح ، والأسد ، والقط ...الخ ومن الطيور هنالك من هم على هيئة النسر ، والصقر ، والعُقاب .. الخ .

ولا شك أن هذا الأمر يثير الدهشة لدى الكثيرين خاصة عند من يظنون أن المصريين القدماء كانوا يعبدون هذه الحيوانات !!

ومن المدهش أن لفظ " النيثر " كان يُطلق على بعض الفراعنة مع أن التراث المصري حافل بالعديد من النصوص التي توضح حقيقة بشرية الفرعون وعلاقته بالإله الواحد . (1)

الحقيقة أن المصريين القدماء لم يكونوا وثنيين بل كانوا موحدين ، والخطأ كان في ترجمة كلمة (نيثر) التي ترجمت دائما بمعنى إله رغم أنها قد تعني : إله ، أو مَلَك، أو نبي ، أو كائن علوي ، فإذا أطلقت مثلا على " رع " فإنها تعني اسماً من أسماء

(1) لمزيد من التفصيل حول لفظ " النيثر " راجع د. نديم السيار " ليسوا آلهة ، ولكن ملائكة " .

الله الحسنى مالك الملك أو إله الشمس ، وإذا أطلقت على (بتاح) فتعني اسماً آخر من أسماء الله الحسنى وهو خالق الإنسان بديع السموات والأرض ، أما إذا أطلقت على "تحوت " فإنها تعني الرسول الموكل بحمل رسالة السماء إلى أهل الأرض .. وهكذا ، وهذا موجود في كل لغات الدنيا ، فعلماء اللغة يقولون إن الكلمة لا معنى لها خارج السياق فمثلا كلمة (الرب) في اللغة العربية تطلق على " الله تعالى ، والمَلِك ، والسيد ، و المُربي ، والمقيم ، والمُنعم ، والمدبِّر ، والمصلح " (1) . والسياق هو الذي يحدد المراد بكلمة رب .

.كذلك كلمة (دُوا) التي ترجمت عادة بمعنى العبادة رغم أنها قد تعني : العشق ، أو الحمد ، أو الدعاء ، أو تعظيم ، أو عبادة . ومعناها يحدده السياق فإذا أضيفت لـ لاسم من أسماء الله فهي تعني العبادة ، أما إذا أضيفت لتحوت ، امحوتب ، أو مينا، أو إخناتون فتعني التعظيم ، فإذا أضيفت إلى حيوان أو طائر فتعني الحب أو الامتنان ، ولا تعني العبادة . ومعاجم اللغة العربية لا تقصر كلمة عبادة على الله تعالى وحده إلا إذا أضيفت إلى اسمه جل شأنه ، إنما في غير ذلك فتعني الطاعة " العَبْدِيَّةُ والعُبودِيَّةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ : الطَّاعَةُ " (2)

و لفظ " دُوا " في قواميس اللغة يعني (العشق .. العبادة) أي أن هذا اللفظ المصري – حسب ترجمته – يحتمل معنى (المحبة والعشق) للنيثر كما يحتمل أيضا معنى (العبادة) . " (3)

المصريون القدماء وصور الحيوانات والطيور

أما عن صور الحيوانات والطير وغيرها التي تزخر بها المعابد لم تكن صوراً لآلهة معبودة وإنما رسم المصري القديم صور الحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات لخلق قوة تمكنه من التعامل معها أو لتطويعها لحسابه .

---

(1) مجمع اللغة العربية " المعجم الوسيط " مادة (رب) .
(2) القاموس المحيط مادة (عبد) .
(3) د . نديم السيار " ليسوا آلهة لكن كلائكة) ص ٢٥٥

كان الإنسان القديم يرسم على جدران الكهوف ما يراه من حوله من حيوانات . ومن غير المعقول أن نعتقد أنه كان يرسم تلك الرسوم من باب الفن أو الرفاهية وهو الذي يعيش عيشة الكفاف والكفاح اليومي من أجل الحياة في أبسط صورها . كان الهدف من الرسم هو تسجيل العلاقة الذبذبية بين الأشياء والزوايا . لقد خلق الإنسان الأول لنفسه من رسم الأشياء قوة مكنته من التعامل معها وقهرها أو تطويعها لحسابه." (1)

إن أظهر دليل على رقي أي شعب من الشعوب ، أو أي فرد فطريٍّ ، هو معاملته للحيوان الذي يستخدمه في عمله ، وفي غذائه ، وفي تسليته .

وكان المصري يعمل جُلَّ ما في طاقته لقضاء كل ما يحتاج إليه الحيوان في رفق ورحمة . كان الفلاح منذ استأنس الحيوانات يقودها إلى الحقل ، والمراعي في أغلب الأحيان حرة طليقة ، وأحياناً يربطها بحبل ، ويقودها ، أما الجامحة فكانت تكل إلى خدم معينين . وعندما يدعو الأمر الراعي إلى عبر قناة لزاماً عليه أن يستخدم قاربين لنقل البهائم من شاطئ إلى شاطئ ، وذلك عندما تكون القناة ضحلة عميقة . لكن عندما يكون الماء ضحضاحاً . فإن الراعي يخوض الماء بجانب قطيعه حاملاً العجل الصغير على كتفيه خوفاً عليه ، وليجعل البقرة تتبعه شفقة على رضيعها " (2)

تقول د. نعمات أحمد فؤاد رداً على سؤال ، هل عبد المصريون الحيوان والطير والنبات ؟

" لا .. لقد ألَّه المصري الزهرة ، والنبتة ، والحيوان ، والتأليه هنا معناه رؤية وجه من وجوه القداسة في إحساس بالكون كله .. لقد رسموا البقرة ، شجرة . والشجرة لها ثدي ، والإنسان يرضع من الشجرة ، والمرأة لها قرنان .. هناك رأي يقول إنها في

(1) د. إبراهيم كريم (ابن د. سيد كريم) في حوار معه أجرته مجلة أكتوبر ونشر في العدد ١١٦٨ الأحد ١٤ مارس ١٩٩٩ ص ٥٠ .

(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الأصل تشبيهات أدبية وخيال شعري أعجب به الناس فجسده الفنان المصور ، وأرى أن هذا لم يكن عبثا من الفنان المصري بل فلسفة كبيرة إنه يرمز إلى وحدة الكون في غلاف من الرحمة التي وسعت كل شيء فالشجرة رمز لعالم النبات ، والبقرة رمز لعالم الحيوان بل رمز للعطاء والحنان والأمومة إنها رهافة وجدان مصر التي فطنت من آلاف السنين إلى ما يسميه الإنجليز وحدة المعرفة ...

وإن الذين لم يروا في ديانة مصر إلا الوثنية إنما نظروا إليها في عصور الضعف كما تنظر العين إلى المصباح الخابي لا ترى فيه إلا (الهباب)..

إن الحضارة المصرية التي يقال عنها وثنية ، كانت تبشر بالمسيحية والإسلام لأن مستشف دقائقها في الفن والتفكير ، يدرك وحدة الخالق في الحياة ، والإحساس الشامل بالكون . هذا أساس الإسلام الذي لا يكف عن الدعوة إلى التأمل والتفكير .

وكانت مصر القديمة تقول : (أطع الإله في قلبك) إذن الإله الحقيقي ليس آمون أو رع ، إن هي إلا أسماء ترمز إلى الإله الحقيقي " (1)

إن ترجمة تراث المصريين القدماء هو السبب وراء رمي المصريين القدماء بتعدد الآلهة وعبادتهم لعناصر الكون .

يقول د. سليم حسن : " إن من يعرف اللغة المصرية القديمة وصعوبة فهمها واحتمال اللفظ من المعاني يلتمس العذر لعلماء الآثار في اختلافهم تعدد آرائهم وتباين مذاهبهم موضوعات كثيرة " (2)

يقول الباحثون في : الدين ، أو الأدب ، الترجمة خيانة ويعنون بذلك أن الترجمة مهما كانت دقيقة فهي غير النص الأصلي هذا بشأن اللغات الحية كالعربية ،

(1) د. نعمات أحمد فؤاد " شخصية مصر " ص ٨٦-٨٨ بتصرف الهيئة العامة للكتاب الطبعة الخامسة .
(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص (ب، ج) مرجع سابق .

والإنجليزية .. فما بالك بلغة ميتة لا يتكلم بها أحد من آلاف السنين كاللغة المصرية القديمة ! قطعا فإن الاختلاف في الترجمة يكون كبيرا جدا ، و الخطأ فيها أكثر من الصواب ، والعاصم الوحيد لنا من هذا الزلل أن نضبط ترجمة عن اللغة المصرية القديمة بمفاهيم الدين الإسلامي الحنيف ومصطلحاته ، فكلاهما يخرج من مشكاة واحدة .

إن المصريين القدماء كانوا مغرمين بالرسم والتصوير والنحت وسائر الفنون ولا عجب فقد كانت لغتهم عبارة عن صور ورسوم (١) وهذه الرسوم ما هي إلا رمز لما يريدون قوله فهم يرمزون لقدرة الخالق جل وعلا بالشمس ، فالشمس عندهم ليست معبودة إنما هي رمز لقدرة الله تعالى العليّ القدير ، والطائر أبو منجل هو رمز لـ " تحوت " رسول الإله وحامل رسالة التوحيد إلى المصريين .

وربما في فترات ضعف العقيدة أو أثناء وجود غزاة وثنيين مثل الهكسوس ، تعبد هذه الرموز على أنها هي الإله نفسه ، ولكن ليس هذا هو حال عقيدة التوحيد عند المصريين دائما فهم كسائر الأمم عندما يأتيهم رسول وكتاب من عند الله منهم من يؤمن ومنهم من يكفر ، وبعد موت الرسول أو قتله يزيد الكفر ويطغى ، وتبدل الكتب السماوية وتحرف فينزل الله تعالى رسولاً آخر وكتاباً آخر يذكرهم بالإيمان الصحيح فيؤمن به من يؤمن ويكفر من يكفر وهكذا دواليك .

نظام الحكم عند المصريين القدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى

" قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الأنعام : ١٦٢)

(١) " استعمل قدماء المصريين الرسم أكثر مما استعمله أي قوم آخرين فحتى كتابتهم كانت على هيئة صور " معجم الحضارة المصرية القديمة " ص ١٦٨

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – كثيراً ما يدعو الله تعالى بهذا الدعاء : " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر " (رواه مسلم) .

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماوية ، وأمر الله تعالى الناس أن يحتكموا إليه .

يقول تعلى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (المائدة : ٤٤)

فمن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند قدماء المصريين يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنه

يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصرية في نظر الشعب المصري نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسي – كما زعم المؤرخون العلمانيون – بل كان هبة الله لشعبه أسس عند خلق الدنيا . " (١)

ولما العجب وقد كان إدريس عليه السلام هو الذي الشعب المصري في بداية الخليقة ، فإدريس قد جمع بين النبوة والحكمة والملك .

يقول الإمام المناوي " قال ابن فضل اللّه: كان إدريس يسمى هرمس المثلث كان نبياً وحكيماً وملكاً ووزيراً " (٢)

وقال القنوجي في كتابه أبجدية العلوم :

(١) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " الجزء الثالث تابع حرف الهمزة

" إن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقاها بوصيته منه، وبعضهم بالقوة القدسية القابلة، وكان أقرب عهد إليه إدريس عليه السلام، فكتب بالقلم واشتهر عنه من العلوم ما لم يشتهر عن غيره، ولقب بهرمس الهرامسة والمثلث بالنعمة لأنه كان نبيا ملكا حكيما. (١)

وذكر ابن إسحاق أن إدريس قد أدرك من حياة آدم عليه السلام ٣٠٨ سنوات لأن آدم عمَّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة .

ولا يعلم أحد إلا الله كم عاش إدريس بعد آدم ، وكم سنة حكم فيها المصريين ، ولكن الذي أكده المفسرون والمؤرخون إن إدريس عاش طويلاً وكان كداود ملكاً نبياً .

كذلك كان نبي الله يوسف حاكماً في مصر

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف : ٥٤ -٥٦)

فهل كان ملك مصر زمن يوسف عليه السلام ملكاً طاغياً متألهاً كفرعون موسى ؟

والإجابة بالنفي لأنه لو كان طاغية لما أعاد التحقيق في قضية يوسف التي بسببها دخل السجن ظلماً ، ولما أبرأ ساحته رغم أن يوسف ما كان إلا عبداً أجنبيّاً اشتراه العزيز بثمن بخس ، وخصمه هو عزيز مصر ، ولم يكتف الملك بإعلان براءة يوسف، وإخراجه من السجن بل إنه استخلصه لنفسه ومكَّن له ، وجعله على خزائن الأرض ، بل وأشركه معه في حكم مصر .

(١) أبجد العلوم للقنوجي ج١ / ص ١٦٤

يقول د. سليم حسن : " لم يكن الفرعون مجرد حاكم مستبد يسيطر على قوم على الرغم من إرادتهم بل كان يحكم بحقه الإلهي بكل معاني الكلمة " (1)

وكان الحكام في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هو مقيد بشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : { إن المصري القديم اعتقد أن أوَّل من حكم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإله قانوناً يسمى " ماعت " ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعية والحكم الصالح ، ولما رفع " رع " نفسه إلى السماء حكم ابنه (2) على الأرض ولقبه " بابن رع " (خليفته) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يتبوأ عرش مصر العظيمة منذ الأسرة الرابعة (أسرة بناء الأهرام) أن يسير في حكمه تبعاً لقانون " ماعت " فإذا ما حاد عنه قيد أنمله فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة السادسة أخذ الملوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالق الذلة ولذا قامت في مصر ثورة اجتماعية قلبت جميع الأوضاع ونادت بالإصلاح الشامل وتقويم فساد المجتمع من الانحطاط . } (3)

لكن ما هو قانون " ماعت " هذا الذي أمر الله تعالى به الإنسان خليفته في الأرض أن يطبقه ، وعلى أساسه يوم القيامة سيحاسبه .

---

(1) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج1 ص ٢٣٨ مرجع سابق

(2) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

(3) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعية فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " ومن ثمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعية (أو شيوعية حسب رأي د. سيد كريم صديق سليم حسن) في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون " ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى . " ([1])

وكانت فترة فرعون موسى من تلك الفترات التي خرج فيها الفرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسول لهم نفسه الخروج عن قانون " ماعت " .

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ {٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾(الزخرف : ٥٤ – ٥٦)

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

([1]) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٩ مرجع سابق

يقول علماء المصريات : { عندما خلق الخالق الكون ، شكَّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابقة للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنَّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشْتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت" هي كُلاً من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون . " (١)

وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون " ماعت " في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقْل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان " ماعتياً " أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت " ماعت " تجسيداً للحقيقة والعدالة . " (٢)

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنتج الآتي :

---

(١) جورج بوزر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدوارز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧

(٢) نفسه ص ٢٩٧

١- خلق الله تعالى الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢- كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣- إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤- أنزل الله تعالى قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥- يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦- الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون " ماعت " .

٧- الإنسان الشرير هو من كذَّب بهذا القانون واتبع هواه .

ولو قارنا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون " ماعت " بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

لقد خلق الله تعالى الكون بكل عناصره متوازنا ومنسجما بعضه مع بعض .

{لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

(يس : ٤٠)

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ (الحجر : ١٩ – ٢٠)

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

كذلك خلق الله تعالى الإنسان متوازناً : روحاً ، وعقلاً ، وقلباً ، وجسداً .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين : ٤)

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠)

فالفطرة إذن هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

(الحديد : ٢٥)

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الشورى : ١٧)

وحذر الله تعالى الإنسان من اختلال الميزان ، والميل لجانب على حساب الآخر كالميل للدنيا على حساب الآخرة أو الميل للجسد على حساب الروح .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن : ١- ٩)

وانظر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون ، وأمره تعالى للإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره

تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون ، وأكد هذا بالتقرير ﴿ ووضع الميزان ﴾ والتعليل ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ والأمر ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ ثم بالنهي ﴿ لا تخسروا الميزان ﴾ أهناك تأكيد أكثر من هذا على وجوب اتخاذ التوازن منهج حياة ودستوراً شاملاً لفهم الدين والدنيا جميعاً ؟!

ثم انظر ثانية إلى قوله تعالى " وأقيموا الوزن بالقسط " والقسط هو العدل ، لكن ما هو العدل ؟

للعدل معان كثيرة منها " العدل: ضِدُّ الجور ، وعدّل الميزان : سوّاه ، العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم ، وقيل : العَدْل تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتى تجعله له مِثْلاً ، ومن أسماء الله تعالى : الحكم العدل " (1)

ومن هذه التعريفات للعدل يتبين لنا أن ميزان العدل يجب أن يكون .

أولاً : منزها عن الهوى .

ثانياً : لا يجور في الحكم .

ثالثاً : أن يقَوِّم (بتشديد الواو وكسرها) ما ليس من جنسه .

وبناء على هذا التعريف إذا أردنا ميزان عدل للإنسان فمن الذي يضعه ؟

هل يضعه الإنسان نفسه ؟!

بالطبع لا .. لأن الإنسان غير مبرأ من الهوى .

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٣)

كما أن الإنسان من نفس جنس المُقَوَّم (بتشديد الواو وفتحها) فكيف يكون هو الخَصم والحكم في آن واحد ؟!

(1) انظر مادة " عَدَلَ " في لسان العرب .

والعدل يقضي أن خالق الإنسان هو الذي يضع له ميزانه وهو الذي يحكم به ولاسيما أن هذا الخالق – سبحانه– منزَّه عن الهوى ، كما أن من أسمائه الحكم العدل ، والمُقسِط ، والحق .

ولقد خلق تعالى السموات والأرض بميزان العدل .

﴿ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن : ٧) .

وهو تعالى الذي سوف يحاسب الناس يوم القيامة بمقتضى هذا الميزان العادل الذي لا ظلم فيه .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧)

فترى ماذا يكون الميزان العدل هذا ؟

إنه كتاب الله : القرآن الكريم { الرحمن علم القرآن }

والله تعالى يأمر نبيه الكريم ، وكل حاكم على محكومين أن يحكم بينهم بكتاب الله العزيز الحكيم .

وألا يتبع أهواء وميول البشر باسم الديمقراطية فلا اجتهاد مع شرع إنما الاجتهاد فيما لا نص فيه ولا حكم قطعي الثبوت والدلالة .(١)

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ ﴾ (المائدة : ٤٩)

---

(١) ولقد ضل أقوام حكَّموا عقولهم وأهواءهم وطرحوا دين الله ؛ فأباحوا الخمر والميسر ، والزواج المثلي (زواج الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة) ، وأباحوا الزنا والسفور والفجور والشذوذ ... كل هذا باسم الديمقراطية وأن الناس صدقت على ذلك وأقرته !!.

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (الأنعام : ٥٧)

وأن هذا الأمر ليس جديداً على الإنسانية فمنذ أن أرسل الله تعالى رسله للناس أنزل معهم بيان الحق وكتاب الشرع ، وميزان العدل ؛ ليقضوا بين الناس بما علمهم الله ولا يتبعوا أهواءهم .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥)

ولم يترك الله تعالى الأمم تتخبط خبط عشواء تحتكم لعقلها القاصر أو أهوائها الجامحة إنما أرسل كل أمة رسولاً ليقضي بينهم بالحق والعدل .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس : ٤٧)

كما أمرنا الله تعالى أن يكون ميزان العدل الإلهي هو القانون الذي نحتكم إليه .

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشعراء : ١٨٢)

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقا لا يشمل الأقرباء دون الغرباء ، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهي سواء بسواء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (النساء: ١٣٥)

وكان النبي مثال العدل بما فهم عن الله تعالى .

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة : ٤٢)

وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن اختلال ميزان العدل كان السبب في هلاك الأمم .

"إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيْمُ الله لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"

(متفق عليه)

كما أمر الله تعالى بالعدل بين طوائف المؤمنين ، وبقتال الطائفة الباغية حتى ترجع لأمر الله فإن رجعت يُصلح بين الطائفتين بميزان العدل الإلهي .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات : ٩)

وتأمل معي ختام الآية والتأكيد الشديد على إقامة العدل بين المؤمنين.

ومن مظاهر هذا العدل المطلق أنه شمل الأعداء . أيضا أ هناك أعظم من هذا ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ (أي لا يدفعكم كره) قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة : ٨)

بل ميزان العدل الإلهي يتسع ليشمل كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨)

أ ليس هذا العدل هو عين الرحمة وأن من أنزله هو الرحمن الرحيم ؟

أ عرفت الآن لم بدأ الله تعالى الآيات بل السورة بل جميع سور القرآن (١) باسم الله تعالى " الرحمن " ذلك الاسم العظيم الذي لا يشاركه فيه أحد والذي من آثار رحمته أن أنزل القرآن .

(١) ما عدا سورة التوبة لأنها نزلت في المنافقين وهم لا يستحقون رحمة الله تعالى{ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون }

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴾ (الإسراء : ٨٢)

هذا القرآن العظيم الذي هو شفاء لأمراض القلوب ، وأوهام العقول ، وشهوات النفوس .. ورحمة للمؤمنين لأنه .

﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧)

ومن آثار رحمته تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠) ، وتعليمه البيان (أي تعليمه من العلوم والمعارف ما يعينه على فهم القرآن ومعرفة أحكامه) ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة : ١٧ – ١٩)

ومن آثار نعمة الله تعالى على الإنسان أن خلق له هذا الكون .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن : ٥– ٧)

وجعل فيه من كل شيء موزون بميزان العدل الإلهي .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ (الحجر : ١٩– ٢٠)

وعلى هذا تحدد الآيات – أوائل سورة الرحمن – أولويات الإنسان :

فأولا : وقبل كل شيء أن يعرف خالقه " الرحمن " ثم يتبع أوامره " القرآن " ليفهم نفسه ويفهم الكون .

وأن كلاً من القرآن ، والإنسان ، والكون يتسمون جميعاً بميزان العدل ولا عجب فجميعهم صادرون عن الرحمن : فالقرآن كلامه ، والإنسان خليفته ، والكون خلقه. (1)

والآن بعد بيان مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية برجاء العودة لقراءة قانون " ماعت " مرة أخرى والبحث فيه عما يتناقض مع شريعة الإسلام .

والذي يؤكد أن حكام مصر لم يكونوا كلهم طغاة – كما يظن الكثيرون – إنما كانوا ملتزمين بقانون " ماعت " تلك الأمثال والحكم التي جاءت على لسانهم ، أو التي وجهها الكهان لهم وكلها تهدف إلى أن العدل هو أساس الملك في الدنيا ، وشرط دوخل الجنة في الآخرة .

يقول الملك " ختي " لابنه الملك " مريكارع " (الأسرة الثامنة عشر) : " هدئ من روع الباكي ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم لا تقتل فإن ذلك لم يكون ذا فائدة لك ، لا تقتل رجلاً تعرف مزاياه رجلاً كنت تتلو معه الكتب ، لا تميز بين ابن شخص ذي حيثية على شخص فقير بل قرِّب إليك إنساناً بسبب عمل يده " (2)

إن الدارس لحضارة المصرية القديمة ليأخذه العجب من أنها بدأت تامة كاملة فالدولة القديمة هي أول من عرفت الزراعة ، وقسمت فصول السنة ، واستصلحت الأراضي ، وسجلوا مقياس النيل ، وزرعوا الشعير والقمح ، والبصل ، والثوم ، والبامية ، واللوبيا والعدس ، والخص ،والبطيخ ، والعنب ... " وكان الفرعون هو مصدر القوانين يحكم بمراسيم كأنها قرارات أوحي إليه بها . " (3)

---

(1) لمزيد من التفصيل حول مفهوم التوازن في الإنسان والكون وشريعة الإسلام راجع كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللأصولية " للمؤلف مكتبة مدبولي .

(2) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية " م١ ص ٤٤٢.

(3) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ص٦٠ دار الشعب

يرجع ذلك إلى تطبيق شريعة الله التي جاء بها أنبياء الله تعالى والتي توحَّد الناس حولها فكانت المنجزات الحضارية المدهشة .

منجزات الحضارة المصرية القديمة

يقول ول ديورانت : " قبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق. م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشئوا لهم حكومة من نوع ما. فقد انقسم الأهلون المقيمون على شاطئ النهر أقساما ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد. وكان لهم شعار واحد . " (1)

وما إن يأتي " مينا " موحِّد القطرين بتوحيد العقيدة التي أوحى الله تعالى به إليه حتى يبدأ تاريخ المنجزات الحضارية الخالدة .

{ ضم " مينا " القطرين تحت سلطانه الموحد، وأعلن في البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله نوت (إله السماء) أقام أولى الأسر المالكة التاريخية، وشاد عاصمة جديدة لملكه في منف وعلَّم الناس وأدخل في البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة} (2)

فالملك " مينا " كان نبيّاً يوحى إليه من الله إله السماء " ودعا الناس إلى نبذ آلهتهم المحلية ومعبوداتهم ، والدخول في عقيدة إله التوحيد إله السماء ، لقد وجدت دعوته استجابة سريعة وبغير حرب في أقاليم الدلتا التي كانت تناصب أقاليم الصعيد العداء . " (3)

لقد رمز الملك " مينا " لدعوته بالصقر المقدس (حامل رسالة التوحيد) وهو يحمل فوق رأسه قرص الشمس أي خضوعه للإله " رع " .. فتحقق له توحيد الوادي بتوحيد.(4)

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ص ٢٦٥
(2) نفسه ص ٢٦٥
(3) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٢
(4) نفسه . ص ٧٢

لقد استمرت عقيدة التوحيد بعد موت مينا ما يقرب من مائتي سنة أي إلى أواخر الأسرة الأولى ، ثم تفككت عقيدة التوحيد بنهاية الأسرة الأولى وعادت مختلف الآلهة والمعبودات تحتل مكانها في المعابد ، وكانت أول محاولة لتوحيد العقيدة التي بدأ ظهورها في منف في الأسرة الثالثة والتي بدأ يخطط لها العالم والحكيم والمهندس والطبيب " ايمحوتب " مستشار الملك زوسر بعد دراسته لعلوم اللاهوت والمعرفة بمعبد هليوبوليس " حصن العقيدة " وكان يعد أحد كهنتها المبجلين . (1)

والحقيقة إن ايمحوتب ما كان إلا نبيّاً من أنبياء الله وقد وجدت وثائق تؤكد هذا منها نص في معبده بـ " إدفو " يصف ايمحوتب بأنه الكاهن الأكبر ابن بتاح الذي يتحدث أو يحاضر " (2)

وهناك نص آخر يقول : " إن سيد البنائين ايمحوتب ابن بتاح إله منف العظيم "(3)

ولقب ايمحوتب بأنه الإله "ابن بتاح" يعني عبد الله ورسوله فالبنوة هنا بنوة مجازية ولقد استخدمت بهذا المعنى في التوراة والإنجيل .

" قال الرب لموسى حالما ترجع لمصر .. قل لفرعون هذا ما قاله الرب : إسرائيل هو ابني البكر " (الخروج:٤)

" إني أب لإسرائيل وأفرايم بكري "(إرميا:٣١)

ويقول الرب لداود " إني أقيم بعدك من نسلك الذي يخرج من صلبك من أُثَبِّتُ مملكته هو يبني بيتا لاسمي ، وأنا أثبت عرش مملكته إلى الأبد . أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابنا " (صموئيل الثاني : ٧)

---

(1) ج. هاري " ايمحوتب ، إله الطب والهندسة " ترجمة محمد العزب موسى ص ٣٠
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٢
(3) نفسه ص ٧٢

فألفاظ مثل " أبناء الله ، ابن الله ، و ابني البكر .." في اللغة العبرية تعني الأنبياء والرسل أو الصالحين أو المؤمنين الحقيقيين من خلق الله .

ولقد وردت في الأناجيل بهذا المعنى كثيراً مثل : " آدم ابن الله " (لوقا : ٣)

" طوبى لصانعي السلام فإنهم سيدعون أبناء الله " (متى : هـ)

إذن عندما تقول الوثائق المصرية " ايمحوتب ابن بتاح إله " فإنها تعني أن ايمحوتب نبي الله المُعظَّم .

ويؤكد د. سيد كريم هذا فيقول : " ذكر المؤرخ مانيتون أن الرسالة التي قام بها ايمحوتب في مختلف عناصر المعرفة من اللاهوت إلى العلوم والطب والهندسة وفن البناء هي التي جعلت المصريين يؤلهونه بعد وفاته بعدة قرون وأطلقوا عليه في الأسرة ٢٦ أي بعد ألفي سنة من وفاته لقب " ابن بتاح " إله الخلق وبنوا له الكثير من المعابد في منف والصعيد والنوبة كأحد الرسل الذين نادوا بالتوحيد . " (١)

وقد توصل المصريون في بداية الأسرة الرابعة في عهد الملك سنفرو إلى المعرفة التامة بالوحدانية بما تصوروه من النظام الإداري الخلقي العظيم . وقد وصل فعلاً إلى ذلك رجال اللاهوت .

والفلاسفة الذين أتوا بعد ذلك العصر ، وما ورد في كتاب الموتى ومتون الأهرام معاً وضع أسس الكثير من الشرائع التي وردت في الأديان السماوية وقد نسب الفراعنة جميع القوانين الإدارية والنظام الاجتماعي والتشريعات إلى أنها منزلة من الإله " رع " فكان لا يسمح للملك نفسه بالتدخل في تعديل القوانين أو أحكام القضاء، ورغم أنه هو الذي كان يحملها للشعب والدولة .

---

(١) نفسه ص ٧٣

وتصف متون الأهرام " رع " بأنه الإله الواحد عرشه الأفق غير المحدود ، وخرج هيكل تكوين الخلق " بن بن " (الهرم) رمز الإله الذي تعبر واجهاته المثلثة عن القوى الثلاثية للإله وقاعدته المربعة ترمز إلى أركان الدنيا الأربعة ، وتشير قمته إلى عرش الإله في السماء .

لقد خرج الشكل ذلك الهرمي من بين جدران معبد هليوبوليس ليبني الأهرام على اختلاف أنواعها كرمز لتوحيد الإله ، ثم انتقلت إلى المسلات أو تطور ارتفاع القاعدة التي تحمل الهرم المقدس قمة المسلة ، لذا وصفوا المسلات بأصبع الإيمان التي تشير إلى رع إله الشمس والمتربع على عرش السماء وإصبع العقيدة المرفوع لرمز وحدانية الإله . (١)

سر بناء الهرم الأكبر

إن العجب ليأخذ المرء كيف يتخبط المؤرخون كل هذا التخبط في تفسير الحضارة المصرية القديمة ، ولا يهتدوا إلى التفسير الديني الذي جاء في كل الأديان والذي ينص على أن الله تعالى أرسل رسلاً لهداية البشر ، وأيَّد هؤلاء الرسل بمعجزات يعجز عن الإتيان بها بشر ، كيف يقبل هؤلاء المؤرخون بأن يؤله ايمحوتب ، ولا يسلمون بنبوته ؟! كيف يذهب المؤرخون في بناء الهرم الأكبر كل مذهب ممكن أو غير ممكن ولا يخطر ببالهم أنه معجزة من الله تعالى أيَّد بها نبيه ايمحوتب وتحدى بها البشر قديماً وحديثا أن يأتوا بمثلها أو حتى يعرفوا سرها .

يقول علماء المصريات : " في غضون فترة وجيزة لا يصدقها عقل تعلَّم المصريون كيف ينقلون أضخم حجارة عرفها تاريخ العمارة بأسره . ويشيدون أهراماتهم التي تسلب الألباب ، ولا يفصل حكم الفرعون زوسر الذي شيد مصطبة سقارة المدرجة التي تعد

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٤

أقدم بناء أثري بالحجر في التاريخ ، عن فترة حكم بناة أهرام الجيزة الكبرى سوى خمسين عاماً ، انصرف خلالها المصريون عن استخدام الطوب وصاروا أساتذة في استخدام الحجر الطبيعي الذي لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل ومن بعد . وفي فترة تقل عن مائة عام ارتفعت عقيدة الفرعون الإله من مستوى الصحراء ومن القبور المسطحة البسيطة إلى بناء زوسر الذي يعد معجزة وهرم خوفو الذي بلغ القمة والذي يصل ارتفاعه نحو خمسمائة قدم . تلك الأهرام التي أخذ حجمها يتضاءل بعد ذلك "[1]

لقد أطلق مؤرخو الإغريق على الهرم الأكبر عند زيارتهم لمصر وأرض الأهرام اسم بيراميدس الذي تحول " بيراميد " في مختلف اللغات ومعناه " هرم " .

لكن ما هو الاسم الذي أطلقه المصريون القدماء بناة الأهرام على الهرم الأكبر ؟

ورد في جميع وثائق عصر الأهرام أن اسم " بن بن " معناه هرم ، وأطلق المصريون على كل هرم من الأهرام التي أقاموها وصفاً يدل على الغرض من إنشائه:

أطلقوا على هرم الملك خفرع اسم برام موت .. أي مرقد المومياء .

وأطلقوا على هرم الملك منقرع اسم برام ميت ..أي مسكن الروح .

كما أطلقوا على هرم زوسر اسم براخت مر .. أي أفق الصعود المنير .

أما الهرم الأكبر فقد أطلقوا عليه برامس وهو الاسم الذي حرفه الإغريق إلى بيراميدس عندما نقلوه بالسمع عن طريق المترجمين . وأطلق اسم بيراميد على جميع الأهرام في تاريخ الحضارة المصرية فأطلقوا على كل هرم اسم بيراميد وبالكشف عن معنى " بيرامس " في اللغة المصرية القديمة وجدناها تعنى المرصد وقد ورد اسم برامس في وثائق وبرديات كتب العقيدة بوصفه نافذة مخاطبة السماء.

---

(1) د. إيفار ليسنر " الماضي الحي " ترجمة شاكر إبراهيم سعيد ص ٥٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب

وبذلك كشف اسم الهرم الأكبر وهو " البرامس " (أي المرصد الأكبر) لغز الهرم الأكبر .

وبالبحث عن تاريخ بناء المرصد ومن قام ببنائه .

كشفت وثائق تاريخ رسالات التوحيد التي نزلت على أرض مصر إن الرسول ايمحوتب الذي حمل رسالة التوحيد الثالثة من معبد " أونو " إلى معبد منف زوده الإله بمعجزات خلق علوم المعرفة المقدسة وهي علوم الطب والرياضيات والفنون وفي مقدمتها رسالة البناء بالحجر وأطلق ايمحوتب على البناء بالحجر اسم عمارة الخلود .. التي يتخذها لبناء بيوت أمره ببنائها وهي " البرامس " (الهرم الأكبر) مرصد مخاطبة السماء وتلقي تعاليم الرسالة .

وهرم سقارة (سلالم الصعود إلى عرش الإله) بدرجاته الستة التي تعبر عن أيام الخلق الستة والمصطبة السابعة التي كانت تحمل كرسي العرش في المناسبات الدينية . والصرح الثالث كعبة العقيدة (هرم ميدوم) مركز حلقة البعث (الطواف) وقد أقام ايمحوتب البرامس العظيم (الهرم الأكبر) عندما حمل رسالة التوحيد إلى منف عام ٣٠٠٣ ق.م (الأسرة الرابعة) (١)

إن الأسرار التي تحيط بمرصد ايمحوتب (الهرم الأكبر) وفي مقدمتها طريقة بناء الأهرام التي وضع ايمحوتب نظريات إنشائها بالمعادلات الرياضية وعلوم الفلك والطاقات الكونية وهناك العديد من نواحي الإعجاز التي وردت في وثائق ايمحوتب المرتبطة بإقامة المرصد وعندما فشل العلماء والخبراء في تفسيرها نسبوها إلى أعمال السحر .

ويحاول كثير من علماء عصر التكنولوجيا الحديث تفسير تلك الأسرار بترجمة كلمة سحر تكنولوجيا وقد توصل البعض أخيراً في تفسير تلك الألغاز من بين تلك

(١) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ٤

الألغاز ما ورد في تحديد موقع المرصد أن ايمحوتب أمر أن يقيم المرصد في " قلب الكون " أسوة بمرصد أونو (عين شمس) الذي أمر الإله إقامته في " قلب مصر " أرض الإله .

فسر علماء الفلك والرياضيات في العصر الحديث معنى " قلب الكون " بأنه مركز ثقل الكرة الأرضية الذي أمكن تحديده عند تقاطع خطي طول وعرض ٣٠ وهو مركز تقابل القارات الخمسة . وكانت المفاجأة التي أُعْلنت عالمياً أن الهرم الأكبر أو المرصد الذي أقامه ايمحوتب يقع بدقة متناهية عند نقطة تقابل خطي ٣٠ الطولي والعرضي . (١)

طريقة بناء الهرم

إن جميع النظريات التي تفتق عنها ذهن العلماء والمؤرخين والكتاب عن طريقة بناء الأهرام والطرق والوسائل التي اتبعها القدماء في بنائها ثبت فشلها جميعاً وابتعدت عن الحقيقة. سواء الممرات الرملية البسيطة الانحدار والتي قد وصل طولها إلى عدة كيلو مترات للوصول إلى القمة الهرمية . واستعمال الزحافات التي تنقل عليها الأحجار والتي يصل وزن بعضها إلى ما يزيد عن الخمسين طناً أي وزن قاطرات السكة الحديدية ومحاولة جر الزحافات التي تحملها والتي تحتاج الواحدة منها إلى مئات العمال فسرعان ما تهبط الزحافة بحمولتها في عمق الممر الرملي كما أن وصف البعض الآخر بأن الممرات الرملية كانت تكسى بطبقة مصقولة من الأحجار الرملية الصلبة فقد ثبت عملياً أن الزحافة سوف تحترق بالاحتكاك حتى ولو كان وزن حمولتها لا يزيد عن طن واحد وليس ٧٥ طناً .

هذا بصرف النظر عن صلابة الحبال التي كانت تستعمل في الجر ولا توجد اليوم رغم التقدم التكنولوجي والآلي رافعات آلية يمكنها رفع أحد تلك الصخور الضخمة والثقيلة إلى ارتفاع يصل إلى مائة متر أي بارتفاع أبراج ناطحات السحاب .

---

(١) نفسه ص ٧

وقد وصف أحد قدماء المؤرخين بان قدماء المصريين كانوا يستعملون السحر في بناء المعابد ونقل الأحجار الضخمة وتثبيتها في مواضعها من المبنى ورفع الأعمدة وإقامتها في مواضعها وأماكنها .

برديتان ألقتا ضوءاً على تفسير السحر بالتكنولوجيا فقد وصفت البردية الأولى التي وجدت في مقبرة أحد مهندسي الدولة الوسطى بالكرنك مؤهلات صاحبها بأنه كان كبير مهندسي المعبد ووصف بأنه كانت عنده القدرة الخارقة في رفع أضخم الأحجار والأعمدة ونقلها في المبنى بغير مجهود أو الاستعانة بأي قوى بشرية عاملة .

والبردية الثانية المحفوظة بمتحف اللوفر ترجع إلى الدولة القديمة في حفريات منطقة سقارة . ويصف صاحبها أنه شاهد الكاهن الساحر بالمعبد يعاون العمال في نقل الأحجار الضخمة بقراءة التعاويذ السحرية الخاصة على الحجر وهو يحمل صندوق أوزوريس ، ثم يأمر العمال بدفع الحجر فيتحرك بغير مجهود على مسافة ثلاثين ذراعاً ثم يعاود التعويذة والطقوس السحرية ويستمر العمال في تحريك الحجر حتى يصلوا به إلى موقعه في المبنى .

من المرجح أن الكاهن الساحر في تلك البردية هو " ايمحوتب " نفسه رسول التوحيد الذي وصف بأنه الساحر الأكبر لمعبد منف بالدولة القديمة والذي أشاد المؤرخون بأعماله السحرية في الطب ولعلاج فاتخذ منه الإغريق إلهاً للطب عندهم وقاموا مع المصريين بتقديسه بما يزيد على سبعة قرون بعد وفاته . كما اتخذ منه المهندسون في مصر رباً للهندسة عندما كان أول من استخدم الحجر في البناء في حضارة مصر وتاريخ الحضارات وكان أول من بنى الأهرام ومختلف نظريات العمارة بالحجر . ونقل عنه الإغريق طرق البناء بالحجر فوضعوا ما أطلق عليه " قواعد العمارة الحديثة " التي بدأت باستعمال الأعمدة في العمارة ابتداءً من العمود الدوريكي

الذي كان ايمحوتب أول من ابتكر شكله عند إنشاء الهرم المدرج قبل ظهوره عند الإغريق بألفي عام كما كان أول من ابتكر شكل تيجان الأعمدة وقواعدها التي نقلتها عنه عمارة جميع الحضارات العالمية . كما وصف المؤرخون ايمحوتب بأنه كان ساحر الفَلَك الذي يخاطب القبة السماوية ويستمد منه علوم المعرفة ومختلف النظريات الرياضية التي استعملها في بناء الأهرام .

أي أنه بالسحر أمكنه التوصل إلى أسرار علوم المعرفة ومعجزاتها وخفاياها !! وكما يقول هوميروس " إن المصريين القدماء استمدوا علوم المعرفة التي بنوا بها حضارتهم من السحر الذي أتقن سحرتهم تسخيره لخدمة أغراضهم "

ويقول سولون عند زيارته لمعبد أون " حصن المعرفة المقدسة " أن كهنته احتفظوا بأسرار علوم الحضارة حتى لا تخرج من حدود أرضهم فأطلقوا على أسرار العلوم ومعجزات نتائجها المبهرة كلمة السحر .

أين الحقيقة ؟

سحر أم تكنولوجيا ؟

الحقيقة تكمن فيما وصفه أحد علماء متحف برلين الذي اهتم بدراسات برديات السحر الموجودة بالمتحف فتوَّج أبحاثه بقوله إذا حاولنا أن نزيح الستار عن حضارة مصر الفرعونية التي لم يصل إلينا منها إلا القليل إلى اليوم فما علينا إلا أن نترجم كلمة " سحر " إلى تكنولوجيا .

إن أية حضارة في العالم إلى يومنا هذا كانت مقومات قيامها تتركز على نوعية القوى المحركة لها والطاقة التي تحكمها وتحركها كالنار والبخار والكهرباء والإشعاعات بأنواعها التي يمكن التحكم فيها سلكيا أو لا سلكياً والتي انتقلت إلى

الأقمار الصناعية ومختلف عناصر الطاقة المسيطرة عليها . وكان لكل منها دور فعال في انتقال الحضارة من مرحلة إلى مرحلة.

بدراسة برديات السحر المصري القديم من ذلك المنطق وفي إطار ذلك المنطق وجدناها ترمز وتعبر عن معادلات تكنولوجية عميقة ودقيقة تؤكد أن قدماء المصريين منذ بدء الحضارة قد توصلوا إلى السيطرة على الكثير من القوى الكونية واستغلال طاقاتها في تحقيق الكثير من أغراضهم العلمية والعملية . كالطاقة الشمسية ومختلف أنواع الإشاعات والذبذبات ومجالاتها المستمدة من القوى الكونية والسيطرة عليها بدء باستعمال البندول والإبر الصينية والطب الروحاني والتي تفسر ما توصلوا إليه من إعجاز في الطب والجراحة وخاصة في عمليات جراحة المخ التي قاموا بها وكشفت عن تفاصيلها أكثر من مميـاء من المومياوات المحفوظة بالمتاحف العالمية والتي وصفها أحد اكبر الجراحين في مؤتمر جراحة لمخ الذي انعقد أخيرا بأمريكا بأنها لا تختلف عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث في عمليات جراحة المخ أكد أن تلك العمليات لا يمكن إجراؤها بدون الاستعانة بأحدث الأجهزة الإلكترونية ومختلف أنواع الأشعة الملازمة لها وخاصة الأشعة الملونة .

لقد لعب شحن الأجسام بالإشعاعات دورا هاما في التحنيط وكشف ناحية من نواحي أسراره الغامضة فقد توصلت الأبحاث التي قام بها الدكتور إبراهيم كريم الخبير في علم البندول بتعاونه مع المعاهد الفرنسية المتخصصة في اكتشاف علاقة التحنيط بالإشعاعات الكونية ووجود إشعاعات صادرة من بعض المومياوات المحفوظة بالمتحف المصري وفي بعض المومياوات التي تم اكتشافها حديثا في حفريات المقابر والتي وجدناها لازالت تحتفظ بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بالأشعة الخضراء لحفظها من التحلل ولقتل البكتيريا التي تعمل

على سرعة تحللها فشحن المومياوات بالإشعاعات كان لها دور أساسي في عملية التحنيط وكشف سراً هاما من أسراره . (1)

لعنة الفراعنة

إن لعنة الفراعنة التي أثارت جدلا بين علماء الآثار والكتاب خلال عدة قرون ، وأجمعوا على نسبتها إلى " السحر " ما هي في الواقع إلا شحن بعض المومياوات التي تسببت في اللعنة بأشعة الموت الخضراء – القاتلة التي تعمل على إصابة من يلمسها أو يقترب منها – كما كانت تشحن بنفس الطريقة بعض متعلقات المومياء من أدوات منزلية أو أدوات الزينة والمصاغ أو التمائم وأقربها ما حدث لسارقي بعض متعلقات توت عنخ أمون وسارقي بعض المومياوات التي اضطر المحتفظون بها إلى إعادتها إلى أماكنها الأصلية أو التخلص منها تخلصاً من اللعنة أو لعنة الفراعنة .

تحتوي المؤلفات التي وضعت عن لعنة الفراعنة – العديد من القصص الأسطورية والتي لا تختلف في نتائجها عن أثر تلك المسروقات على حامليها في إصابة أصحابها بنوع من التسمم الغامض .. ونسبوه إلى سحر الفراعنة .

وقد أعلن بعض الخبراء المصريين أنهم تمكنوا من تسجيل إشعاعات نووية صادرة من بعض الأجسام أثناء مرورهم بقياس الأشعة في قاعة المومياوات بالمتحف المصري . (2)

بناء الهرم الأكبر والسخرة

أما ما قيل بأن الهرم الأكبر (بيت الله) شاهد على حياة السخرة والعبودية التي كان يحياها المصريون فهذا محض افتراء ؛ ومن يقول بهذا الرأي إنما يريد السير وراء

(1) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ٢٠– ٢٣
(2) نفسه ص ٢٤

اليهود وتوراتهم التي تصف بناء سليمان للهيكل كان عن طريق تسخير الأمم من غير بني إسرائيل وتعبيدهم .

وسخَّر الملك سليمان مائة وثلاثة وثمانين ألفا وثلاثمائة رجل من أرجاء إسرائيل لبناء الهيكل وهم على النحو التالي : ثلاثون ألف رجل لإحضار الخشب من لبنان ، و" سبعون ألفا من حمَّالي الخشب وثمانون ألفا من قاطعي الحجارة في الجبل ، ما عدا ثلاثة آلف وثلاث مئة من المشرفين على هؤلاء العمال " (ملوك الأول : ٥)

بعد أن أتمَّ سليمان بناء " كل ما رغب فيه في أورشليم وفي لبنان وفي جميع أرجاء سلطنته . أما من تبقى من الأموريين والحثِّيين والفَرِزِّيِّين و الحِوِّيِّين واليَبُوسيين الذين لا ينتمون إلى بيني إسرائيل ، من ذَرَاري الأمم التي عجز الإسرائيليون عن إفنائهم ، فقد فرض عليهم سليمان خدمة التسخِير كالعبيد إلى هذا اليوم . أما أبناء إسرائيل فلم يُسخِّر سليمان منهم أحداً ، لأن منهم كان يتألف جنوده ورجال حاشيته وأمراؤه وضباطه قادة مركباته وفرسانه ، وكان عدد المُوَكَّلِين على الإشراف على خدمة العُمال المُسخَّرين لتنفيذ أعمال سليمان خمس مئة وخمسين رجلاً " (ملوك الأول : ٩)

ويكذب القرآن الكريم هذه الرواية ويبين في جلاء أن الذي بنى له أعماله كان الجن الذي سخره الله تعالى له فهم الذين يعملون له ما يشاء من تماثيل ومبان .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ : ١٢ ، ١٣)

جاء في تفسير ابن كثير لقوله تعالى : ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه {بإذن ربه} أي بقدره وتسخيره لهم

بمشيئته، ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة {نذقه من عذاب السعير} وهو الحريق، وقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدره، وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور، وقال الضحاك: هي المساجد، وقال قتادة: هي القصور والمساجد " .

أما عن حال المصريين الذين بنوا الهرم فالوضع مختلف لأن بناء الأهرام وغيرها من دور العبادة أُطلق عليها في كتاب التوحيد صفة بيوت الإله وتبعاً للقواعد التي أرسى ايمحوتب تعاليمها ونسبها إلى متون العقيدة أن المساهمة في إقامة تلك البيوت نوع من أنواع العبادة وكان من أركانها إما بالمساهمة بالمال أو العمل في تشييد أو تقديم القرابين والذبائح التي كانت تصرف كتموين وإعاشة للعمال . ()

فكان العمال والفلاحون يتسابقون طواعية في العمل على قطع الأحجار من المحاجر ونقلها والاشتراك في أعمال البناء تقُرباً للإله الذي يساهمون في بناء بيته.

وقد ذكر بعض مؤرخي عصر الأهرام أن العمل في بناء الهرم الأكبر كان يتوقف في مواسم الحصاد والري والزراعة وكان الفلاحون ينسبون وفرة المحصول في موسم الحصاد إلى إرضاء الإله عما قاموا به نحوه من بواجب العمل في بناء صرحه .

وقبل البدء في بناء الهرم الأكبر قامت الحكومة ببناء مدينة للعمال والفنيين وسوقاً للتموين ومخبزاً ومخازن حفظ القمح وهي تعتبر مدينة عمال بناء الأهرام أول مدينة في تاريخ العمارة وتخطيط المدن تبني بطريقة الإسكان الجاهز أو سابق التجهيز حيث تم توحيد نماذج تصميم المساكن لمختلف طبقات العمال والفنيين بتوحيد الأبعاد القياسية للمساكن وتحديد نماذج الأبواب والشبابيك ووحدات الأسقف وغير ذلك من

(1) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" مرجع سابق ص ٣١

مختلف وحدات إنشاء المبنى التي يسهل تركيبها عند إقامتها وفكها عند قضاء مهمتها.

وعند الانتهاء من بناء الهرم كوفئ العامل بالتصريح لهم بفك أجزاء مساكنهم السابقة التجهيز ونقلها لإعادة بناء مساكنهم في قراهم وهو ما وصفه مؤرخو عصر الأهرامات بنهضة تعمير القرى وأعياد بنائها وكان العمال يعتبرون تلك البيوت هبة من الإله جزاء مشاركتهم في بناء بيته . فالهرم الأكبر بني :

بعقيدة الإيمان .. لا بالسخرة .

بني كمعبد للإله ومرصد لمخاطبة السماء .. لا مقبرة للموتى .

بني بعلوم المعرفة المتقدمة والتكنولوجيا .. لا بالتعاويذ والسحر (1)

إن تعجب فعجب قول المؤرخين الغربيين ومن شايعهم من العرب والمسلمين الذين يقرون بأن بناء الأهرام كان إعجازاً لا يصدقه عقل ومعجزة تسلب اللب ، وأن " العالم بأسره يخشى الزمن أمَّا الزمن فلا يخشى غير الأهرام " (2) أنه في خلال فترة وجيزة تحول المصريون البسطاء الذين يبنون بيوتهم الصغيرة بالطين إلى عمالقة تشيد صروحاً لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل ومن بعد ، حتى هؤلاء المصريون عجزوا عن بناء أهرام مثلها على العكس من منطق الأشياء ، الذي يقضي بأن التقدم يسير للإمام .

ومع اعتراف المؤرخين بهذا لا يريدون أن يعترفوا بأن ايمحوتب نبي الله الذي ازدهرت في عصره عقيدة التوحيد الخالص لله هو الذي شيد الهرم الأكبر بعدما أمدَّه الله بالعلوم التي مكنته من ذلك .

---

(1) نفسه ص ٣١-٣٣ .

(2) د. إيفار ليسنر " الماضي الحي " ترجمة شاكر إبراهيم سعيد . الهيئة العامة للكتاب .ص ٦٠ .

والأعجب أنهم يعترفون بان ايمحوتب هو " مصمم – ولا شك – هرم زوسر المدرج بسقارة الذي يعتبر أقدم أثر ضخم في مصر " (1) وكما أنهم يعترفون بأن الفرق الزمني بين بناء هرم زوسر (المعجز) وهرم خوفو (غاية الإعجاز) لا يزيد إلا نحو نصف قرن بحسابهم . وهو ما يعني أن المُشيِّد واحد .

سر العلوم المصرية القديمة

إن الوثائق المصرية تؤكد وتلح في التأكيد على أن ما وصل إليه المصريون القدماء من علوم ومعارف إنما كان من وحي السماء " إن المصريين القدماء أنفسهم إذ يذكرون أن كل العلوم – الدينية والدنيوية – قد جاءتهم وحياً من السماء عن طريق الرسل ويذكر د. أحمد البدوي " كان علم المصريين – في اعتقادهم – مرجعه إلى السماء جاءهم به رُسُل من حكماء الماضي " (2)

يقول أرنولد توينبي فيلسوف المؤرخين في هذا المعنى " إن الله تعالى الواحد الحق قد اغتنم فرصة الصدام والانهيار اللذين أصابا التقاليد المحلية القديمة ففتح أذهان أصحابها واستغل هذه التجربة الأليمة فأنار هذه الأذهان التي تفتحت مؤقتاً وبصَّرها بمعرفة ذاته ، ومقاصده على وجه أكمل ، وأقرب إلى الحق مما يتسنى لهم معرفته من قبل " (3)

ولا عجب إذن أن يكون شعب مصر أول الموحدين هم أنفسهم أصحاب أقدم تكنولوجيا عرفها التاريخ فهم الذين اخترعوا المحراث ، والمنجل ، والمطرقة ، الجاروف ، والمكنسة ، المنخل ، الغربال ، والمغزل ، والنول ، والبكرة ، ...

ولقد برع المصري القديم في النسيج براعة فائقة ، عثر على الكثير منه وهو في غاية الدقة والبراعة والإبداع .

---

(1) نفسه ص ٥١ .

(2) د. نديم السيار " ليسو آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٤

(3) أرنولد توينبي " الحضارة في الميزان " ترجمة أمين محمود الشريف ص ١٩٣ دار إحياء الكتب العربية .

والمصري أول صانع في التاريخ ، وهو الذي علم الدنيا كلها فنون الصناعة كما علمها الزراعة ، وقبل هذا علمها التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد .

وهي أول من استأنس الحيوان واستخدمه ليساعده في عمله كالحمار ، الثور ، الكلب ، والقطة ،والحصان ، الجمل أو ليستفيد من إنتاجه النحل ، والغنم ، والبقر

كان المصري يعامل حيواناته برفق ، ويقودها إلى الحق وهو ينشد لها الأغاني"[1] ومازال الفلاح المصري الأصيل يتعامل مع الحيوان بالرفق ويغني له .

من أين تعلم المصري كيف يستأنس هذه الحيوانات ؟ وكيف يستخدمها ؟ وكيف يتعامل معها هذا التعامل الراقي ؟ إن لم يكن هناك أنبياء علموه وشرائع سماوية تمسك بتعاليمها ،ولقد جاءت شريعة الإسلام بتمام ذلك .

لقد عرف المصري القديم أنواع الأحجار المختلفة ، واستخدمها في البناء فعرف أحجار البرشيما الخضراء والحمراء وحجر الديوريت والدولوميت والصوان ، واستعمل الجبس ، وحجر الشست والأردواز .

وعرف أحجار الزينة : العقيق الأحمر والأبيض ، والزمرد المصري الأخضر ، والمرجان الأحمر والأبيض ، واللؤلؤ والفيروز ..

وعندما كان قدماء المصريون يقطعون الحجارة من الجبال لبناء المعابد أو غيرها كانوا " يسجلون عليها مكان الشمال الجغرافي ؛ لأن هذه القطعة الحجرية قد عاشت منذ لحظة تكوينها داخل مجال مغناطيسي محدد وتأقلمت عليه ، وكان القدماء يدركون ذلك ويضعون الأحجار في نفس الزوايا التي كانت عليها في الجبل الأصلي قبل قطعها " [2] .

([1])أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ص٦٢ دار الشعب

([2]) د. إبراهيم كريم في حوار معه أجرته مجلة أكتوبر ونشر في العدد ١١٦٨ الأحد ١٤ مارس ١٩٩٩ ص ٥٠.

ما هذا العلم العجيب !! إن العلمانية الغربية التي وصلت إلى درجة عالية من التقدم لم تفطن لهذا ! ولم تطبقه حتى جاء من حفدة الفراعنة من علمها هذا .

من علم المصريين طبيعة الحيوان ، وطير ، والنبات ، والجماد أمم أمثالنا تسبح وتخشع .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٨)

يذكر القرآن الكريم أن الحجر يخشى الله ، ويخشع له ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ ﴾ (البقرة : ٢١)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر : ٢١)

من علَّم المصريين القدماء طبيعة الحجارة ؟ أليس خالقها ؟

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن : ١)

كما عرف المعادن : النحاس والذهب والحديد والقصدير والفضة والرصاص والبرونز ... عرف كل ذلك وغيره من أكثر من سبعة آلاف سنة (٥٦١٩ ق. م)

كما عرف المصريون القدماء النقود أيضا .

واستعمل المصري القديم المقاييس : الزراع والشبر والقصبة والقيراط ، واستعمل الأرقام في الحساب بكل علاماته منذ فجر التاريخ .

كما عرف علم الفلك وكان في عين شمس كاهن خاص لمراقبة سير الشمس ، وفي المعابد جماعات لمراقبة سير النجوم . وتقسيم السنة إلى شهور قمرية كل منها ثلاثون

يوما أكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر . واليوم ينقسم إلى أربع وعشرين ساعة، واستخدم المصري القديم " المزولة " لمعرفة الساعة نهاراً ، والنجوم معرفها ليلاً ، كما عرف الساعة المائية .

المصريون القدماء والطب

أما في الطب فقد بدأ التحنيط منذ الأسرة الثانية ، وكان الأطباء متخصصين : أعين ، باطني ، أسنان ، وكانت هناك كتب طبية منذ الأسرة الخامسة المعلومات فيها مرتبة ترتيباً علمياً منطقياً حيث فحص مؤلفها الجسم الإنساني من الرأس إلى القدمين ، ورتب مادتها ، وقد دون بها عشر حالات عن الجمجمة وتسعاً عن الأنف وعشراً عن الفك والأذن والشفتين وستاً عن الزور والرقبة وخمساً عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وستاً عن الصدر ومقدمته ، وواحداً عن العمود الفقري (١)

وفي جميع أنواع العلاج التي استخدمها الطب المصري كانت طبيعية لا أثر فيها لمواد كيماوية فقد كان يعالج عن طريق الحواس السبع بعد إضافة حاستي : الروح والقلب للخمسة المعروفة كالتالي : الأعشاب الطبية عن طريق الفم (التذوق) وكان يتعرف عليها عن طريق " بندول ، وبعض أنواع العصي وغير ذلك من الأدوات اللازمة وكلها لها خاصية عدم الثبات والقدرة على الحركة حتى تسجل وترصد أي تغيير في المجال فيتحرك الجهاز أو الأداة " (٢) والألوان للعين (البصر) والروائح للأنف (الشم) ، وإبرة حورس السحرية (اللمس) التي عرفت فيما بعد باسم الإبر الصينية ، الموسيقا للأذن (السمع) بالإضافة إلى الإشكال الهندسية لتقوية المناعة التي عرفت بعد ذلك باسم البيوجومتري أو علم هندسة الطاقة ، كل هذا إلى جانب علاج حاستي : القلب والروح اللذان كان يتم علاجهما عن طريق الصلاة والدعاء ولذكر والعبادة ...

---

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ص٦٥ دار الشعب

(2) د. إبراهيم كريم في حوار معه أجرته مجلة أكتوبر ونشر في العدد ١١٦٨ الأحد ١٤ مارس ١٩٩٩ ص ٥٠.

والمصري عندما يتعامل مع عناصر الطبيعة ، وما بها من حيوان أو طير ، أو نبات يتعامل معه تعامله مع كائن له روح وإحساس ، يتعامل معه تعامل المحب المتعاون ، لا السيد القاهر ، فهو يعلم أنها مخلوقات لله مثله وفقاً لقانون " ماعت " كما سبق ذكره .

وبإيمان الإنسان وعمله الصالح ينضم إلى العابدين الساجدين لله من خلقه ، أما من أبى واستكبر وكان من الكافرين فقد انضم إلى إبليس ولي العاصين لله ، وحق عليه العذاب في الآخرة والشقاء في الدنيا ، فمن أعزه الله عز ، ومن أهانه فما له من مكرم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ (الحج : ١٨)

ولقد قام د. إبراهيم كريم (١) مستشار العمارة وصاحب علم بيو –جيومتري الجديد ونجل د. سيد كريم بالاستفادة من علوم الفراعنة وقد حقق إنجازات عظيمة شهد العالم كله له بها وقد توصل إلى " استخدام الزوايا بأشكالها المختلفة في علاج الأمراض ، فكل مجموعة يناسبها زاوية بمقدار معين ، وإن هذا العلم موجود منذ بداية وجود الإنسان على الأرض والباحث المتأمل سوف يرى أن الإنسان الأول قد عرف هذا العلم واستغله ودونه على بعض الآثار المختلفة " (٢)

---

(١) د. إبراهيم كريم حاصل على شهادة أكسفورد وكامبردج متروكوليشن ، ودرس الهندسة المعمارية في معهد التكنولوجيا في زيورخ وحصل على البكالوريوس عام ١٩٦٧م ثم على الدكتوراه في العلوم عام ١٩٧٥، رئيس لجنة تأثير الأشكال الهندسية على الوظائف الحيوية التابعة للمركز القومي للبحوث ، وصاحب براءة اختراع الأشكال الهندسية

(٢) د. إبراهيم كريم في حوار معه أجرته مجلة أكتوبر ونشر في العدد ١١٦٨ الأحد ١٤ مارس ١٩٩٩ ص ٤٩.

ويكشف لنا هذا العلم لغز اهتمام الحضارة المصرية بالصور والرسومات المختلفة والتي ظن الناس خطا أنها معبودات عبدها المصري القديم ولكنها في الحقيقة ما هي إلا قوة مكنته من التعامل مع الأشياء .

يقول د. إبراهيم كريم : " فن الرسم الذي نراه اليوم كنوع من التجميل والجمال أو الرفاهية الفنية كان قديما علما مهما لحياة الإنسان . كان الإنسان القديم يرسم على جدران الكهوف ما يراه من حوله من حيوانات . ومن غير المعقول أن نعتقد أنه كان يرسم تلك الرسوم من باب الفن أو الرفاهية وهو الذي يعيش عيشة الكفاف والكفاح اليومي من أجل الحياة في أبسط صورها . كان الهدف من الرسم هو تسجيل العلاقة الذبذبية بين الأشياء والزوايا . لقد خلق الإنسان الأول لنفسه من رسم الأشياء قوة مكنته من التعامل معها وقهرها أو تطويعها لحسابه . ومع مرور الوقت بدأ الإنسان يفقد قوته مع الطبيعة وتفلتت تلك العلوم من أذهان الناس ووعيهم، ولكننا نجد أن بعض الناس ظلوا يحافظون على أسرار هذه العلوم . مثل الأشخاص الذين كانوا يبنون دور العبادة خلال مراحل تطور الأديان المختلفة فهذه الأشكال الهندسية ظلت متوارثة بينهم على مر الأجيال " (1)

ويؤكد د. إبراهيم على معرفة المصريين القدماء لعلم الإحساس بالإشعاع أو الموجة الذاتية (راديستيزيا) فيقول :" قد عرف الطب الفرعوني فوائد القياس الذبذبي خصوصا في جراحات المخ وفتح الجمجمة ، فكان الطبيب المصري القديم يستخدم القياس الذبذبي لتحديد مكان الورم ثم يفتح الجراح فتحة صغيرة ويزيله من خلالها وهذا التكنيك ثابت في أوراق البردي المختلفة " (2) .

---

(1) نفسه ص ٥٠ .
(2) نفسه ص ٥١ .

فوائد صحية للعبادة

والنظرية الجديدة التي يقدمها د. إبراهيم كريم تؤكد أن مصدر هذا العلم إلهي وليس بشري أن الله تعالى قد جعل في العبادة التي فرضها على عباده فوائد صحية عظيمة كشفها علم (الراديستيزيا) فقد كشف بعض أسرار الوضوء والصلاة يقول د. إبراهيم كريم " إن الطاقة الذبذبية تتجمع وتختزن في مناطق دهون الإنسان .. لماذا ؟ لأن الدهون عازلة تعزل ما في داخل الجسم عن الرنين ، وتتجمع فوقها أيضا الطاقة الذبذبية التي علقت بالإنسان خلال الحياة اليومية . وعند الوضوء ، وعند غسل مناطق الوضوء وهي تلك الأجزاء الظاهرة من جسم الإنسان التي تتعرض للطاقة الذبذبية الصادرة عن الآخرين والأشياء ، فإن هذه الذبذبة تسقط مع ماء الوضوء وهذا هو أحد أسرار الوضوء في تأهيل الإنسان للتركيز في الصلاة . أما عن الصلاة فإن الإنسان يضبط رنينه الخاص على أماكن العبادة التي يتوجه إليها مثل القبلة والكعبة."(١)

كما أن للدكتور إبراهيم كريم رؤية خاصة عن أسرار الذكر وأسماء الله الحسنى وما لها من طاقة ومجالات ذبذبية هائلة ، كما أنه يستغل هذا العلم في بناء منازل ومبان بزوايا هندسية معينة ترفع من مستوى الطاقة عند الإنسان أو زوايا تزيد الطاقة الروحية أو درجة الشفافية الروحية عند بناء أماكن العبادة .

الحياة الاجتماعية للمصريين القدماء

تكلما عن الحياة الدينية ، والعلمية عند الفراعنة ولم يبق إلا الحديث عن الحياة الاجتماعية عندهم :

---

(١) نفسه ص ٥١ .

كان المصريون في عهد القديمة يؤلفون طبقتين : الطبقة الحاكمة وطبقية الشعب .وتتألف الطبقة الحاكمة مكونة من الفرعون وآله (أي أهله) وملئه وهم الكهنة والوزراء وكبار رجال الدولة وهم قلة في المجتمع .

أما طبقة الشعب فكانت تتكون من صغار موظفي الدولة والفلاحين والعمال والتجار والصناع وكان وضعهم التالي .

الفلاحون : كانوا يمثلون معظم السكان وهم مرتبطون بالأرض ويشتغلون بالفلاحة وبالخدمة في الأراضي الملكية وضياع الأمراء وعظماء الدولة .

العمال وهم دون الفلاحين في العدد ويعملون في البناء والتشييد وصناعة الأدوات والحياكة وغيرها من الحرف التي لا يستغنى عنها مجتمع متحضر .

أما بقية المهن كالتجار والصيادين والجنود النظاميين فنسبتهم قليلة إذا قيست بالفلاحين والعمال .

والذي يهمنا أن جميع أفراد الطبقة الشعبية كانت سعيدة بعملها " فليس من شك في أنها تعبر عن المثل الأعلى في إدراك ألي الأمر معنى معاملة الأتباع بالحسنى والعدل . ويبدو في كثير من مناظر الحقول والمصانع المصورة على جدران المقابر أم ذلك كان عملاً ساراً بهيجاً ، كثيرا ما تصحبه النكات المتبادلة .. وكثيراً ما يقترن بالأنغام الموسيقية إذ أن أولي الأمر كانوا بطبيعتهم يميلون إلى المرح والسرور والتنعم بأكبر قسط من متع الحياة ، وكانوا يحبون أن يروا بيئتهم سارة بهيجة وليس هناك على كل حال مجال للقول بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالا سيئا خاليا من الرحمة .

كما أنه لا مجال للقول كذلك بأن المصريين كانوا فريقين : أغنياء ينغمسون في متع الحياة ، وعامة الشعب الذين أضر بهم شظف العيش وقسوة الحياة ، فإنه لا

أساس لما يذهب إليه الكثيرون من أن عهد الدولة القديمة كان عهد ظلم واستبداد لمصلحة الملك ومصلحة الدولة استعبد فيه آلاف من أفراد الشعب في بناء الأهرام والمباني الضخمة . ليس هناك دليل واحد يمكن الاعتماد عليه للأخذ بهذا الرأي . على أن هذه المباني الضخمة تدل على نقيض ذلك وما تدل عليه من حسن تنظيم وإدارة يمكن أن تشير إلى نقيض ذلك ، ويدعم ذلك ما تمثله سائر الفنون وصناعات ذلك العصر من حضارة راقية تكفي للتدليل على انتفاء أي وظلم واستعباد وقع على أصحاب هذه الحضارة " [1]

إن ما قدمته مصر للعالم في مختلف علوم التشريع وقوانين المجتمع وحقوق المرأة كذلك في علوم الري والزراعة ومختلف الحرف والصناعات وفنون الحياة ، كذلك في الرياضة وألعابها القديم منها والحديث وقد خرجت كلها من مصر ، لا تقل أي منها أهمية عما قدمته الحضارة المصرية من أسس وعراقة في علوم الطب والفلك والعمارة"[2]

رؤية إسلامية للحضارة المصرية

إن التفسير الديني الذي تبنيناه هو ما يحل لنا ألغاز الحضارة المصرية وهي :

١- كيف ظهرت الحضارة المصرية القديمة متكاملة ومتطورة في جميع عناصر مقوماتها ، ولم تخضع لسنة النشوء والارتقاء كغيرها من الحضارات الأخرى .

٢- بلوغها الغاية في علوم الفلك والطب والكيمياء والهندسة والزراعة والفنون والآداب .

٣- بلوغها الغاية في الأخلاق الحسنة التي لا تقتصر على مخالقة الناس بالخلق الحسن بل الحيوان والطير وكل خلق الله كذلك .

([1]) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر " ص ١٩١ مؤسسة المطوعات الحديثة الطبعة الثالثة .

([2]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٨٦

٤- معرفتها لدين الله الحق عقيدة اشتملت على أسرار الوجود والإيمان بالإله الخالق ، وشريعة نظمت حياة المجتمع .

٥- التبشير بهذه العقيدة بين شعوب العالم مما مهد طريق الحضارة لكل شعوب العالم فما من حضارة من الحضارات إلا واقتفى أثر الحضارة المصرية القديمة ، كل على قدر علمه وجهده .

٥- لغز بناء الهرم الأكبر ، وتوحيد مينا ، إخناتون ، وعبقرية ايمحوتب .

تحوت ، وهرمس ، وإدريس ثلاثة أسماء لمسمى واحد

لقد فجرت الحضارة المصرية القديمة أول ثورة ثقافية جمعت بين العقيدة والمعرفة أو بين الدين والعلوم منذ فجر التاريخ وتشابكت جذورها فلم ينفصل أحدهما عن الآخر . لذا فقد أطلقوا على العلوم اسم المعرفة المقدسة نسبوا كل شيء إلى الخالق عندما كانوا أول من آمن بوجوده فارتبطت المعرفة وعلومها بالسماء فنبتت جذورها في المعابد وأصبحت ضمن مقدساتها . لم تخضع لمبدأ التجارب والخضوع لسنة النشوء والتطور بل خرجت إلى النور متكاملة يعززها البحث العلمي الذي فنسبوها إلى المعبود " تحوت " المعروف عند اليونان باسم هرمس المثلث بالنبوة والحكمة والملك ، وأكثر العلماء المسلمين يجمعون على أن هرمس هو سيدنا إدريس عليه السلام .

يقول الإمام المناوي " قال ابن فضل اللّه: كان إدريس يسمى هرمس المثلث كان نبياً وحكيماً وملكاً ووزيراً. قال أبو معشر: هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية وأول من عمل الكيمياء وأول من بنى الهياكل ومجد اللّه فيها وأول من نظر في الطب وتكلم فيه وأنذر بالطوفان وكان يسكن صعيد مصر فبنى هناك الأهرام والبرابي وصور فيها جميع الصناعات وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده

حرصاً منها على تخليدها بعده وخيفة أن يذهب رسمها من العالم وأنزل اللّه عليه ثلاثين صحيفة ثم رفعه مكاناً عليا " (١)

وهذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على كلام المؤرخين على تحوت .

يقول الشهرستاني في " الملل والنحل "

" حِكَم هرمس العظيم المحمودة آثاره، المرضية أقواله وأفعاله، الذي يعد من الأنبياء الكبار، ويقال : هو إدريس النبي عليه السلام، وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة، ورتبها في بيوتها، وأثبت لها الشرف والوبال ، والأوج، والحضيض."(٢)

وقال القنوجي في كتابه أبجدية العلوم :

" إن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقاها بوصيته منه، وبعضهم بالقوة القدسية القابلة، وكان أقرب عهد إليه إدريس عليه السلام، فكتب بالقلم واشتهر عنه من العلوم ما لم يشتهر عن غيره، ولقب بهرمس الهرامسة والمثلث بالنعمة لأنه كان نبيا ملكا حكيما.

وجميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عنه ، في قول كثير من العلماء، وهو هرمس الأول ، أعني إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام المتمكن بصعيد مصر الأعلى " (٣)

ويقول حاجي خليفة في " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون "

---

(1) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " الجزء الثالث تابع حرف الهمزة

(2) الملل والنحل للشهرستاني الجزء الثاني الباب الأول الفصل الثاني أصحاب الروحانيات .

(3) أبجد العلوم للقنوجي ج١ / ص ١٦٤

وقالوا: إنه أول من تكلم في الأجرام العلوية، والحركات النجومية، وأول من بنى الهياكل، وعبد الله – تعالى – فيها، وأول من نظر في الطب، وألف لأهل زمانه قصائد في: البسائط، والمركبات، وأنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض، فخاف ذهاب العلم، فبنى الأهرام التي في صعيد مصر الأعلى، وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم صفات العلوم والكمالات، حرصا على تخليدها، ثم كان الطوفان، وانقرض الناس، فلم يبق علم ولا أثر، سوى من في السفينة من البشر، وذلك مذهب جميع الناس، إلا المجوس، فإنهم لا يقولون بعموم الطوفان، ثم أخذ يتدرج الاستئناف والإعادة، فعاد ما اندرس من العلم إلى ما كان عليه من الفضل والزيادة، فأصبح مؤسس البنيان، مشيد الأركان، لا زال مؤيدا بالملة الإسلامية، إلى يوم الحشر والميزان . (١)

إذن " تحوت " الذي حيَّر كل المؤرخين بما جاء به من العلوم المقدسة والتي تعد أساس كل معرفة عرفها البشر ما هو إلا نبي الله إدريس المصري الأصل ، وما العلوم المعجزة التي جاء بها إلا عطاء الله تعالى للبشرية لتعينهم على إصلاح الأرض بالعلم النافع والعمل الصالح ، ويشكروا الله تعالى عليها وعلى نعمه التي لا تعد ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل ١٨– ٢٢)

وهذا ما يؤكده " ساونيرون " فيذكر في كتابه عن أسرار المعرفة المقدسة " أن تحوت ما هو إلا رمز عن الكهنة الذين نزلوا أرض مصر في عهد ما قبل الأسرات

(١) الحاجي خليفة " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " ج١ ص ٢٧ .

وأسسوا معبد آمون " عين شمس " بمعاهده ومرصده الذي أطلق عليه قدماء مؤرخي الإغريق " قلعة المعرفة المقدسة " .

فضل الحضارة المصرية على البشرية

من تلك القلعة خرجت جميع عناصر الحضارة المصرية مقوماتها ومنجزاتها في مختلف علوم الحياة وفنونها وآدابها ، وأسرار العقيدة وتشاريعها ونظمها .

في مجال الثقافة : أنزل " تحوت " (سيدنا إدريس) الحرف والكلمة والنطق وأسماء الأشياء جميعها وعلم الإنسان الكتابة والقراءة ليقرأ تعاليم الآلهة وينعم بالحكمة والمعرفة .

فكانت الكتابة الهيروغليفية (النقش المقدس) التي دونوا بها كتابهم المقدس ثم مختلف الخطوط الهيراطيقية والديموطيقية التي دونوا بها آدابهم وفنونهم ومختلف علوم الحياة .

وبنزول الكتابة ابتكر المصري القديم الورق ذلك الابتكار الحضاري الفذ قوام الحضارات جميعها ، ومازالت تنعم به الإنسانية إلى الآن . صنعوه من البردي (بابي أور) هو الاسم الذي احتفظ به العالم الحديث وأطلقه على الورق في جميع اللغات .

ومع اختراع الورق اخترع المصري القديم القلم الذي صنعه من غاب النيل والحبر من نبات النيلة والفرشاة من الريش لرسم الخطوط الزخرفية والحبر الأحمر والألوان وانتقلت كل منها لتترك بصمات مصر على جميع الحضارات وامتدادها .

وقرأ وسجل ودون .. أول من كتب التاريخ كتبه على الورق والألواح الارتواز والفخار والأحجار الصلبة لإيمانه بحق الأجيال القادمة في حمل رسالة الثقافة .

وأعظم تجربة في نشر الثقافة ومحو ألامية في عهد الفراعنة رسالة الإعجاز التي سجلها التاريخ لإخناتون عندما نادى :

" أول أركان الإيمان بالله هو العلم والجهل كفر " .

وقد ازدهرت جامعة " أون " القديمة بمختلف علوم اللاهوت والفلك والطب والهندسة والرياضيات والزراعة والفنون والآداب في وقت واحد وفيها نشا أول مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود والتوحيد ومنها تخَّرج ايمحوتب وإخناتون وانتسب إليها أكثر الأنبياء والفلاسفة والعلماء الذي وضعوا أسس الحضارة وأنظمة المجتمع للعالم أجمع .

ومنها خرج التقويم الشمسي المربع الذي قسم السنة إلى ٣٦٥ يوما وربع ، كما نسب إليها معجزات العلوم الرياضية الهندسية وعلوم ما وراء الطبيعة التي بنوا فيها الأهرام والتي وقفت تتحدى العصر الالكتروني الحديث الذي مازال يقف حائرا وعاجزا عن تفسير ألغازها أو حل رموز أسرارها .

ومن معبد " أون " خرجت بعثات الكهنة ابتداء من الأسرة الأولى لنشر عقيدة التوحيد في جميع أنحاء الوادي ، وإقامة المعابد ، والمعاهد العلمية التابعة لها لنشر العلم والمعرفة .

وقد استمر معهد " أون " يؤدي رسالته العلمية والحضارية تلك الفترة التي استمرت ما يقرب من ثمانية آلاف عام حتى بداية الغزو الفارسي عندما دخل " قمبيز " مصر عام ٥٢٥ ق.م فحرق معبد " أون " وهدم معاهده ومرصده وحرق وثائقه وأمر بتحطيم بوابات الشمس وجميع مسلات المدينة .

وآخر جامعة في تاريخ الفراعنة جامعة الإسكندرية ومكتبتها المشهورة والتي بنيت ٢٩٦ ق.م في عهد بطليموس ولعبت دورا كبيرا في نقل الحضارة المصرية وعلومها إلى الإغريق والرومان فكانت وسيلة الاتصال المباشر بين مصر وأوربا خصوصا أن التعليم بها كان باللغتين المصرية واليونانية .

ثمار إثبات توحيد المصريين القدماء

قد يسأل سائل : ما الفائدة من إثبات معرفة المصريين للتوحيد ؟ وإثبات نبوة تحوت

، ومينا ، وإخناتون ، وايمحوتب ؟

إن الثمار التي تجنى من إثبات توحيد المصريين القدماء كثيرة وجليلة أهمها :

أولا : إن إثبات توحيد المصريين القدماء لله ، وإثبات نبوة هؤلاء وغيرهم حجة دامغة لعلماء الأديان والآثار والمؤرخين في الغرب بصدق نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فما جاء به أنبياء المصريين من عقيدة وعبادة جاء بها سيدنا محمد في أروع صورها وأتمها و أكملها . (١)

ثانيا : إن إثبات نبوة تحوت ، وإخناتون ، ومينا ، وايمحوتب ، وغيرهم من أنبياء مصر الذين ظهروا إبان الحضارة المصرية القديمة يكشف لنا لغز هذه الحضارة التي عجز كل المؤرخين عن حله ووقفوا إزاءها وقوف قروي ساذج أمام طائرة تحلق بلا طيار . أو بمعنى أدق وقوف اليهود أمام خلق عيسى من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طيراً بإذن الله .

ثالثا : إن إثبات نبوة أنبياء مصر دليل قاطع على أن عقيدة التوحيد هي دين الله الذي جاء به كل الأنبياء من لدن آدم إلى محمد رسول الله ومن أين يتأتى الاختلاف والمرسل واحد تبارك وتعالى .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ، وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾(الشورى : ١٣ ، ١٤)

أنظر إلى ختام الآية الكريمة التي تفضح أهل الكتاب الذين رفضوا الرسالة الخاتمة

(١) للمؤلف كتاب مستقل حول هذا الموضوع اسمه " رؤية إسلامية للحضارة الفرعونية " تحت النشر

وفرقوا بين دعوة الأنبياء رغم أنها واحدة لا اختلاف فيها فكلها من عند الله الواحد الأحد .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ {١٣٢} أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(البقرة : ١٣٠– ١٣٣)

نعم الإسلام هو دين الله الذي أنزل به كل الأنبياء هو دين آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ولوط ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وعلى من لم يذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم من الأنبياء والمرسلين .

وتوحيد المصرين القدماء هو ما يكشف لنا لغز الحضارة المصرية الذي حير كل المؤرخين .

يكشف لنا سر الهرم الأكبر ، والتحنيط ، التقدم المعجز في العلوم : الطب ، الرياضيات ، والهندسة ، والفلك .. والفنون والآداب ..

إذا عرفنا أن امحتب الذي جاء بمعجزات في الطب ، والهندسة ، والبناء ، ومشيد أول هرم " هرم زوسر " المدرج بسقارة . كان نبيّاً من الأنبياء وأن ما جاء به من معجزات كانت بإذن الله .

وأن مينا ما وحد القطرين إلا بتوحيد العقيدة ، وهناك صورة للملك " مينا " وهو عائد من الوضوء ، وخلفه الكاهن الموضِّئ يحمل النعل وإبريق الماء . " (١)

(١) انظر كتاب " ليسوا آلهة " ص ٢٦٨ .

كيف انهارت الحضارة المصرية القديمة ؟

لم يكن تاريخ مصر كله تاريخ توحيد لله وإعمار لكونه فقد تعرضت مصر لفترات ضعف للعقيدة وخروج على قانون " ماعت " مما نتج عنه الفوضى والاضطرار والضعف وللانهيار حدث هذا مع نهاية الأسرة السادسة – كما سبق أن ذكرنا – حين انفلت زمام الحكم من يد الفرعون ، وساد الانحلال والتفكك الاجتماعي ، وشبت نيران الحرب الأهلية حوالي ٢٢٠٠ ق.م إلى أن جاء منتوحتب الثاني أمير طيبة سنة ٢٠٦٥ ونجح في توطيد النظام واستتباب الأمن ، ثم وهب الله تعالى مصر رجلاً عظيماً هو امنمحات الأول صحاب الفضل الأكبر في بناء النهضة التي ظهرت في أيام العصور الوسطي ، ولقد أعلن نفسه مخلصاً بواسطة نبوءة ، وكان من أتباع " أمون " (الذي لا تدركه الأبصار) وتعاقب من بعد امنمحات الأول سبعة ملوك نهضت البلاد في أيامهم نهضة شاملة ، وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة في عهدي سنوسرت الثالث ، امنمحات الثالث، وكانت نهاية الدولة الوسطى إلى حد كبير شبيهة بختام أيام الدولة القديمة ، إذ خلف امنمحات الثالث ملوك ضعاف تلاشى على أيديهم نفوذ فرعون مصر تماماً فكان ذلك نذيراً بانتهاء أيام تلك النهضة ، ودخول مصر مرة ثانية في عصر الفوضى والظلام .

وبسقوط عقيدة التوحيد مع نهاية الدولة الوسطى حوالي ١٧٧٥ ق.م كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش وكل ذي سطوة إلى العرش ، ما كاد يجلس أحدهم عليه قليلاً حتى يقتله أو يخلفه آخر ليحل محله ، ونتج عن ذلك أن تعددت المؤامرات ، واضطرب الأمن وتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة ، وكانت النتيجة الحتمية لاضطراب أحوال البلاد وتفككها وضعف حكومتها أن سقطت فريسة حوالي ١٧٢٥

ق.م في يد القبائل الرعوية التي كانت تسكن فلسطين والتي أطلق عليها الهكسوس ، وبعد قرن من احتلال الهكسوس مصر استطاع أحمس أن يطردهم من مصر ، ويعيد إلى مصر نهضتها ، ولكن ختمت الدولة الحديثة أيامها حين تلاشت سلطة الفرعون تماماً وولت أيام العظمة وتكالبت العلل على مصر وبدأ عهد مظلم طويل كان فصل الختام في التاريخ الفرعوني ، ويعّرفه المؤرخون اصطلاحاً باسم العصر المتأخر ، الذي كان عصر ضعف واحتلال أجنبي . (1)

وبرغم عصور الظلام التي عاشتها مصر بعد سقوط العصر الفرعوني حتى أشرق عليها نور الإسلام إلا أن الحضارة المصرية التي قامت على أرضها تظل خالدة وشاهدة على أصالتها ، وعلى نشأتها الدينية السماوية ؛ فلم يكن قبل المصريين من ينقلوا عنه أو يقلدونه بل خلقوا تلك الحضارة خلقاً وأنشئوها معتمدين على الإيمان بالله الواحد الأحد ، وعلى ما جاء به أنبياؤهم من علوم مقدسة ، ولقد تميزت تلك الحضارة أيضاً باستمرارها عدة آلاف من السنين راسخة ثابتة الأركان والأوصال .

كما تميزت تلك الحضارة بتأثيرها على العالم القديم بما نشرته من نور المعرفة والعلم حتى نقل الإغريق عنها الكثير ، والذين قاموا بدورهم بالتأثير على النهضة الأوربية الحالية ، وأخيراً تميزت الحضارة المصرية بما تركته من آثار ، وبما احتفظت به من روائع الصناعات والفنون التي تملأ متاحف العالم شاهدة بما بلغه المصريون القدماء من تقدم وما أحرزوه من نجاح . (2)

ونخلص من دراستنا للحضارة المصرية القديمة إلى أنها قامت على أسس هي :

---

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مرجع سابق ص ١١، ١٢

(2) نفسه ص ١٢ .

١- العقيدة الخالصة لله تعالى . هي مفتاح كل خير .

٢- وجوب الإيمان بأنبياء الله والعمل بما جاءوا به من هدى .

٣- لا حضارة بغير إيمان بدين الله الحق واتباع شرعه .

٤- مقياس العمل النافع يكون بمدى ملاءمته لطبيعة الإنسان ولنظام الكون .

٥- التعاون بين سائر المخلوقات ضرورة لصالح كل الكائنات .

٦- انتشار العدل والمحبة أعظم دافع للعمل المثمر البناء .

٧- إتقان العمل وإخلاصه يكون لوجه الله وليس غير .

٨- وجوب حب الطبيعة وما بها من كائنات ، والتعاون معها لا إفسادها .

٩- شريعة الله لا تتعارض مع نظام الكون ولا مع طبيعة الإنسان .

١٠- الحضارة المصرية القديمة بدأت كاملة لأنها بنيت على شرع الله .

***